المجنونة

رواية

المجنونة

رواية

تأليف :

عبد الرحيم كمال

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

مراجعة لغوية:

محمود عبد الرازق

محمد حمدي

رقم الإيداع: 2016/25581

الترقيم الدولي: 978-977-820-008-9

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعيةٍ أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابيٍ من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

عبد الرحيم كمال

المجنونة

(رحلة إلى الدنمارك وبلاد أخرى)

رواية

(وحيدًا في طائرة بيضاء)

كما أخبر صديقَيه ذات مساء شتوِيّ في نهاية القرن العشرين

إهداء:

إلى صديــق العُمْــر النموذجــيّ الــذي كان يَحلُــم بالطــيران...

ضحكتك ما زالت تحيط بنا

في ميـدان أوروبي متسـع كان يقـف مدهوشًـا أمـام التماثيـل التـي تشـبه أصدقـاءه إلى حـدّ بعيـد. كانـت التماثيـل تبتسـم لـه وتسـأله عـن سرّ عـدم نزولـه إلى وسـط البلـد في الفـترة الأخـيرة، وعـن غيابـه الـذي طـال عـن شـقة «الفرنسـاوي»، وعـن أجندتـه الرماديـة التـي كان يهـرب منهـم إليهـا، في حـين عـلى الأرض إلى جـوار التماثيـل حَمَامـات حطَّـت قديمًـا، وحوَّلَهـا الشـتاء والغربـة إلى طيـور مـن جبـس.

أمسـك بحمامـة منهُـنّ وقـذف بهـا في وجـه تمثـال صديقـه المبتسـم، فطـارت مـن يـده، وتابعهـا بنظـره حتـى حطَّـت فـوق مقـام سـليمان باشـا الفرنسـاوي، تحديـدًا فـوق سـوره الحديـد الدائـري، وأخـذت تنـوح:

«كان يسـكن هنـا بجـوار هـذا القـبر وقريبًـا مـن كل المـوتَى».

قبل الكتابة...

كانت شقّتهم الصغيرة الضيِّقة بالدور الأرضي بجوار سليمان باشا الفرنساوي بحَيّ مصر القديمة، الذي أُطلِقَ عليه الآن «ميدان محمد فؤاد جلال»، والضريح مجهول بلا لافتة، كالثلاثة الذين يسكنون إلى جواره في شقّتهم المظلمة الضيقة. الثلاثة القادمون من الجنوب، مظلوم مثلهم ووحيد مثلهم، اسمه الحقيقي «أوكتاف جوزيف أنتلمي سيف»، وُلد بمدينة ليون الفرنسية عام ١٧٨٨، مثلهم بعيدًا عن العاصمة، ووُلدوا بعده بمئتَي عام في بلادهم البعيدة في سوهاج وأسيوط. أسند إليه محمد على باشا في عام ١٨١٩ مَهَمَّة تكوين جيش مصريّ على الأُسُس الأوروبية الحديثة، وسلّمه مئة مملوك نواةً أُولَى في تكوين الجيش المصري، في أسوان أنشأ الكولونيل سيف هذه المدرسة، وظلّ يدرّب طُلَّابها على مدى ثلاث سنوات، إلى أن تَخَرَّجوا كأوَّل دُفعَة من الضُّبَّاط في

الجيـش المـصري.

سـليمان باشـا الفرنسـاوي غريـب قابـع في قـبره، وإلى جـواره وجـوار مقابـر المسـيحيين والمسـلمين يقبـع صاحبنـا مجـاورًا أيضًـا جامـع عمـرو بـن العـاص وكنيسـة بابليـون، يفصلـه عـن المماليـك كوبـري المنسـتيرلي الخشـب، يشـاركه في الشـقَّة الصغـيرة المُعتِمـة، التـي يطـلّ شُـبَّاكها المغلـق دومًـا عـلى المقـام، اثنـان آخـران، الأول -أو «الصديـق الـذي ينـام مبكِّـرًا» كـما كان يلقِّبـه- ارتحـل معـه مـن سـوهاج إلى القاهـرة ورافقـه سـنوات عِـدَّة، مـن الثانويـة العسـكرية بسـوهاج إلى مدينـة الطلبـة، ومنهـا إلى شُـقَق متتاليـة اختتماهـا بالفرنسـاوي. والثـاني القـادم مـن البـداري بعينـين لامعتـين ووجـه أسـمر، ويصحبـه دومًـا صـوت الربابـة المبحـوح، التـي جرحهـا المنشـد عنـد كلّ انفعـال، يصحـب أشرطـة الكاسـيت في كرتونتـه معـه مـن مدينـة الطلبـة في إمبابـه إلى شُـقَق عِـدَّة آخِرهـا هنـا، شـقة الفرنسـاوي. تسـتطيع أن تعلـم أنـه موجـود قبـل دخـول الشـقَّة،

حينـما تمـرّ بجـوار الشُّـبَّاك المغلَـق، وأنـت تخطـو إلى مدخـل البيـت، ليتهـادى إليـك صـوت سـير الأقدَمِـين عـبر أصـوات «جابـر أبـو حسـين» و«عـلي جرمـون» أو آهـات «صالـح عبـد الحـيّ»، سـتعتقد لأول وهلـة أن الشـقَّة المُعتِمـة يسـكنها عجـوز فـانٍ، لكنـه ابـن البـداري، «الصديـق النموذجـي حتـى القتـل» كـما سـمَّاه، لم يتجـاوز السـابعة والعشريـن بعـد، يجلس في الغرفـة منفـردًا يحـدق إلى المـاضي، كان يسـكن معهـما هنـا كمقيمَـين، ولكـن مـرّ بالشـقَّة أيضًـا كثـير مـن العابريـن، منهـم المجنونـة التـي عـبرَت ولم ترحـل، وظـلّ ينتظرهـا طويـلًا خلـف الشُّـبَّاك المواجـه للقـبر الـذي مـا زالـت تنـوح فوقـه الآن الحمامـة:

«كان يسـكن هنا...قريبًـا مـن كل المـوتي... ينتظـر حبيبتـه».

البداية دائمًا عبر شُبَّاك مفتوح.

فتح الشُّبَّاك الوحيد وأغلق الباب خلفه وخرج بعد أن ترك جهاز الكاسيت يعمل على مقدِّمة موسيقية لغنوة لم يستمع إليها.

لو نظرنا إليه الآن من إحدى النوافذ المفتوحة لرأينا من أعلى شخصًا ضئيلًا، نَزِقًا... يسرع الخطى. ولو اقتربنا لوجدنا أسماء من عرَفَهم في حياته القصيرة، وهي تتوالى من تحت قدميه بخَطٍّ أبيض واضح على الأسفلت.

وتكون الأغنية قد بدأت الفعل:

«يَبْكِي وَيَضْحَكُ لَا حُزنًا ولا فَرَحَا...»

لم يكُن يقرأ الأسماء، لأنها كانت تخرج من أسفل حذائه سريعةً.

سَرْعانَ ما تظهر بيضاء على الأسفلت الأسود،

وسَرْعـانَ مـا تختفـي في الخطـوة التاليـة. انتهـت أسـماء مَـن عرَفَهـم صُدفَـةً أو مـن عاشرهـم طويـلًا- ولا يتذكرهـم بالمـرة- وبـدأت الأسـماء التـي تليهـم في الظهـور. ولـو تابعْـتَ قدمَـي هـذا الرجـل الضئيـل مـن ذاكـرة حذائـه، فسـتجد الأسـفلت الأسـود وقـد امتـلأ بالأسـماء لمسـافة تمتـدّ مـن كورنيـش النيـل في مـصر القديمـة إلى ميـدان التحريـر. كان بعـض الأسـماء الطبشـورية يسـتقرّ طويـلًا، والأخـرى لا تـكاد تظهـر. ولعـلّ أكـثر تلـك الأسـماء اسـتقرارًا كانـت الأسـماء التاليـة:...

لـن نذكرهـا الآن لأنهـا آتيـةٌ آتيـة، سـواء عـلى أسـفلت القاهـرة أو هنـاك في «ميـدان أوروبي»، يشـبه الميادين التـي رأوهـا في أفلامهـم المفضَّلـة وقـرؤوا عنهـا في الروايـات المترجَمـة، ميـدان يُطِـلّ عـلى حديقـة ويمتلـئ بالتماثيـل العاريـة البديعـة، كـما تَصـوَّره المسـافر ولم يـزُره في حياتـه، أو في البـلاد الأخـرى، التـي مـرّ بهـا سريعًـا دون تأمُّـل، واشـتركت جميعًـا في أن المسـافر لم يزُرْهـا قَـطّ، بـل لم يخـرج

مـن مـصر عـلى الإطـلاق.

لكنـه لـن يجـد «المجنونـة» في مقهـى «الشـمس»، والثلاثـة في شـقَّتهم عـلى الـدوام في «الفرنسـاوي»، حتـى لـو غادروهـا فالشـقَّة دائمًـا لا تصلـح لـه ولم يعُـد مـكان آخَـر صالحًـا لوجـوده أو تحمُّلـه، وكان لا بـد مـن السـفر.

نظـر وراءه بجِـدَّة ليجـد شريـط الأسـماء الأبيـض خلـف قدمـه، وقـد امتـدّ عـلى الأسـفلت الواسـع الطويـل. اسـتدار ليتأمـل ماضيـه! عنـد «المجنونـة» -وهـو آخـر تلـك الأسـماء- امتـدّت أمامـه سـجَّادة حمـراءُ طويلـة تنتهـي بسُـلَّمٍ لطائـرة بيضـاءَ كُتـب عليهـا باللـون الأخـضر: «الخطـوط الجوِّيـة الأوروبية». كانـت مريحـة وفارغـة تمامًـا، لكنهـا أقلعـت بالفعـل.

ربـط حزامـه وضبـط مـؤشِّر التليفزيـون أمـام مقعـده في الطائـرة عـلى قنـاة منوَّعـات لم يتابعهـا، وتـرك «موتسـارت» يسـكب خِفَّتـه في أذنيـه، لكنـه شـعر بالرعـب حينـما شـاهد السـحاب الأبيـض

يجاوره، وأدرك أنه بعيدٌ تمامًا عن الأسفلت الأسود، وشعر أنه من حقِّه أن يفكِّر فيمَن عرف بِرَاحةٍ، وأن يتعامل مع مخاوفه بحُرِّية.

فالمرأة المجنونة دائمًا هي أكثر الأشياء رعبًا بالنسبة إليه، أكثر من الرجل المجنون أو الجنّ أو العفاريت، وذلك لأسباب أخرى تمامًا لا تعود إلى مرض أخته النفسيّ بحال من الأحوال، أو لهذيان جَدَّته المتواصل قبل موتها، أو لأولئك السيدات اللاتي قابلهن بكثرة غير طبيعية في المواصلات العامَّة، واشتركن جميعًا في الجنون الصريح. إحداهن خاطبت السماء بكلام لا يليق، والأخرى واصلت الضحك والبكاء المستمرَّيْن وهي تشير إليه حتى أُحرِجَ بشكل مبالَغ فيه، والثالثة اقتنصته من قلب زحام الباص لتصفعه بشدة على قفاه، تأديبًا له على وساوسه الجنسية تجاهها، وأنه كان معطيًا ظهره لها في تَعمُّد سافر للتفكير في جسدها بحُرِّية.

لم يكُـن لـكل تلـك الأحـداث العرَضِيَّـة أي دخـل في رُعبِـه الدائـم مـن امـرأة مجنونـة، إلى أن قابلهـا صدفـة حينـما جـاءت إلى شـقَّته برفقـة مخـرج شـابّ ذات مسـاء.

أمرتـه المضيفـة -التـي تَـدلَّى رأسـها مـن سـقف الطائـرة ولم يسـتطع تَبـيُّن ملامـح وجههـا بوضـوح- أن يفـكّ حزامـه وأن لا يبالـغ في أهمِّيـة الذاكـرة، حتـى لا يفقـد الطيَّـار اتزانـه أو خِفَّـة دمـه أو رغبتـه في مضاجعتهـا بـين حـين وآخَـر. فـكّ حزامـه وأجَّـل التفكـير في المجنونـة، وبعـد تَـردُّد طويـل راودتـه فكـرة أن ينظـر مـن النافـذة. كان يخـشى النظـر مـن أعـلى بشـدة، لكنـه فعلهـا، ليجـد الأرض بعيـدة جـدًّا، والأسـفلت الأسـود لا يـكاد يُـرى، وحـاول أن يدقِّـق أكـثر لـيرى اسـمًا مـن الأسـماء البيضـاء التـي خرجـت مـن أسـفل قدمـه في المـاضي، لم ينجـح بالطبـع وضبـط مـؤشِّر التليفزيـون الصغـير عـلى قنـاة تُبَـثّ مـن القاهـرة، كانـت كل الأخبـار عاديـة، ولم يكُـن بهـا خـبر عـن خـطّ أبيـضَ مـليءٍ بالأسـماء البيضـاء، امتـدّ

في شوارع القاهرة خارجًا من حذاء أحدهم، أو عن طائرة بيضاء بخطوط خضراء تحمل مسافرًا وحيدًا. إنها حتى لم تتحدث عن شخص رافق ثلاثة أشخاص آخرين في مصر القديمة بجوار قبر سليمان باشا الفرنساوي وبالقرب من كل الموتى (الروم الكاثوليك والأرمن وجامع عمرو والمماليك).

فتح كل النوافذ وخرج تاركًا خلفه أغنية تتردَّد. تقفز أم كلثوم بشكل خاطئ دون أن تعتذر إلى موتسارت وتُوَشْوِش (وآدي خطوتك.. آدي بسمتك.. آدي انت كلك.. نورك وضلك). «الهِيدفون» في أذنه وهو يبتسم ويتأمل الطائرة الفارغة والصامتة والشريط الإلكتروني الأحمر المضيء، الذي يتحرك فوق رأسه معلنًا: «ابتسم.. أنت في طريقك إلى أوروبا.. باقٍ على الجهة الأخرى من البحر خمس شخصيات وثلاثة أحداث بلا أهمِّية.. هدّئ الذاكرة.. أمامك منطقة سكنية».

رأس المضيفة يتدلَّى مرة أخرى من سقف الطائرة: حاول أن تتذكر شيئًا مسلِّيًا، فقد بدأ

الطيَّـار يشـعر بالفتـور تجاهـي...

في منتصـف الليـل الشـتوي كان يجلـس منفـردًا شـاردًا، حينـما أتى إلى شـقَّةِ الفرنسـاوي الصَّدِيـقُ الـذي دخـل مبتسـمًا، شـعره يقطـر منـه المـاء كأنمـا خـرج تـوًّا مـن تحـت الـدش. الصديـق الـذي لقَّبـه بلقـب «العابر/المقيـم» مـا زال يتحـدث بطزاجـة وطلاقـة، وهـو ليـس أحـد الثلاثـة المقيمـين، لكنَّـه كان أحـد العابريـن، اسـتطاع في فـترة وجيـزة أن يعتـاد إيقاعـات القاهـرة غـير المنتظمـة، واكتسـب حِكْمـة جعلـت صاحبنـا يتأمَّـل حديثـه بإعجـاب وذهـول: ليـس مطلوبًـا منـك أكـثر مـن التأمُّـل.. لا تقلـق! لمَ لا تذهـب يوميًّـا في الصبـاح إلى فنـدق شـيك مُطِـلّ عـلى النيـل سـاعتين أو ثلاثًـا؛ تكتـب ولـو نصـف صفحـة، وفي الليـل تبحـث عـن المجنونـة وتسـامر أصحابـك؟ فقـط لا تقلـق.. فقـط اكتـب بهـدوء وجـمال.. لا يهـمّ الشـكل ولا النـوع.. شـعر.. روايـة.. قصـة، لا يهـمّ.. كتابـة فقـط. سـتُنتِج كل عامـين كتابًـا مهـمًّا عـن أشـياءَ لم يرَهـا غـيرك، وسـتكون حينهـا أهـمّ مـشروع

في جيلـك، فـلا تقلـق.

كان صاحبنـا بالفعـل يظـنّ أن مهنتـه الكتابـة.. الكتابـة التـي جعلتـه يرنـو نحـو القاهـرة ويحملـه إليهـا القطـار، ليجـاور مسـجد عمـرو بـن العـاص كأنـه جـاء إلى هنـا مـع الفاتحـين، لـذا كان يسـتمع في تركيـز داخـل الطائـرة البيضـاء الخاليـة.

حدثـت هـزّة عنيفـة في الطائـرة تبعَتهـا صرخـة هائلـة للمضيفـة دون أن يظهـر رأسـها هـذه المـرة:

«اسـتيقظ يـا ابـن المجنونـة، اسـتيقظ أيهـا السـافل، فالطيَّـار يهـدّدني أن يـترك الطائـرة إن لم تُكمِـل مـا بـدأت. اسـتيقظ يـا ابـن المـرأة التـي ضاجعهـا الشـيطان فأنجبتـك في تلـك الرحلـة المشـؤومة.. اسـتيقظ يـا لعـين...».

في شـقة الفرنسـاوي أفـاق مـن إغماءتـه القصـيرة، لم تكُـن نومًـا بحـال مـن الأحـوال. كانـت يـده تقلّـب الشـاي بالحليـب بالفعـل وكان «العابر/المقيـم» لايزال يكمـل حـواره في شـقة الفرنسـاوي. تركـه ودخـل

المطبخ. كانت كل الأواني أصغر مِمَّا يريد، لكنه انتقى أكبرها ووضعه على البوتاجاز واقترب منه، لا يزال يتكلم بنفس الحماس دون انقطاع، حتى إنه لم يشعر به وهو يقطع إحدى ساقيه ويضعها في «الحَلَّة» الممتلئة بالماء الذي لم يسخن بعد. ربما فتور الماء وعدم سخونته كان سببًا في عدم شعور ساقه حتى الآن، فكان لا بد من قطع الساق الأخرى، ولكن من الواضح أن الماء لم يصل بَعْدُ إلى درجة الغليان! فلم تشعر بَعْدُ اليدان حتى الكوع ولا الذراعان، وحينما أخذ وقتا طويلًا في حَزّ وسطه لم يشعر أيضًا، فقط ظل يثرثر بإيقاع أكثر هدوءًا. وحينما قطع رأسه تمامًا ووضعه في إناء خاصّ على العين الأخرى من البوتاجاز، فقط صمت لعدة ثوانٍ مع نظرة استفهامية، ثم واصل حديثة كما كان:

«فقط لا تقلق، لا يهمّ أنك لا تستطيع القراءة ولا الكتابة في تلك الشقَّة، لكن يكفي أنك ستفعل يومًا ما تريد، فقط لا تقلق، فأنا أحب رُوحَك

الساكنة ونظرتك الهادئة التي تنظر إليّ بها الآن. استمتع براحتك وفراغك وادعُ لي، فأنا في دوَّامة. كتاب عَليّ أن أترجمه وديوانان في المطبعة وندوات ومقالات... سأطير أنا وأتركك لذلك السلام المتجلِّي في نظرتك، لا تقلق. سلام».

كان خفيفًا تمامًا حينما خرج وطار بالفعل. وحينما نضج على الإناء كان طعمه تمامًا كالحمام، فقد كان أخفّ الأصدقاء. رشف آخر قطرة في الشاي بالحليب الذي يبدو أن المضيفة قد أحضرته في أثناء إغماءته السابقة. وشعر باهتزاز يعتري الطائرة! لم يتمكن القلق من التسرب إليه حينما تبعت الهزةَ تأوُّهاتُ المضيفة... فقط ابتسم وأدرك أن الليل قد حلّ وأنه لم يعُد سحاب أبيض بجوار النافذة، لكن صوت المضيفة أتى هامسًا ودودًا: أكمل.. مثيرة جدًّا حكايات طهوك لأصدقائك وأكلهم.

لكن الذاكرة سحبته إلى المجنونة وشجار في شارع فؤاد أو ٢٦ يوليو، لا يستقرّ على اسم للشارع الذي

أسمته النساء بشارع فؤاد وأسماه الرجال بشارع ٢٦ يوليو، كان يحبّها ولا يثق بها، وعندما هدّه ذلك الصراع بعد كل فترة من غيابها، يفترسه الوقت بسلاحَي الشكّ والاشتياق فيصرخ:

- فلتذهبي في ستين داهية...

فتردّ وقد امتلكته:

- أعطني ظهرك وأنا أذهب... ما دمت تنظر إليّ فلن أبتعد.

فيدفعها ويبتعد ويستدير بعد دقيقتين ليتابع ابتعادها، يداهمه شوق ورغبة مُلِحَّه في أن يناديها مرَّة أخرى، لكنه يتراجع.

في الطائرة يتدلَّى رأس المضيفة من السقف:

«لعنة الله على ذاكرتك وذاكرة أبيك. إن صوت مشاجرتك مع المجنونة أفسد الكابينة تمامًا.. إما أن تصمتا وإما تعود لحكي مُسَلٍّ». شعر بالأنس للمرة الأولى داخل الطائرة وصمت بالفعل.

لكن المجنونة أتت، كعادتها، غير عابئة بتحذيرات المضيفة أو خوفه الفطري. وقفت خارج الطائرة التي هرب إليها منها ولعّبت حاجبَيها وأخرجت لسانها، كأنها تعرف أنه لا مهرب منها. كانت معلَّقة في الهواء وحقيبتها الثقيلة على كتفها، وتَعجَّب كيف لم تسقط بحملها إلى الأرض. تَصنَّع النوم لفترة أطول ليأنس بصوت المضيفة الذي غاب عنه ليلة كاملة، وبدأ في الاستيقاظ الحقيقي مع طرقة الباب الثالثة في شقَّة الفرنساوي. إنه الصديق النموذجي حتى القتل، وضحكته المجلجلة من منظر صاحبنا المنكمش خلف الشُّبَّاك في حزن، فيسخر في حب:

«مكتوب على جبينك أنها لم تأتِ في موعدها كالعادة.. المجنونة تفهمك أكثر من نفسك يا مجنون، وتعرف أن سرّها في انتظارك.. تأتي حينما تفقد الأمل وتختفي حينما تظنّ أنك ملكتها، إحساسها عالٍ».

ويمشيان معًا في دروب مصر القديمة، يمرَّان من

جـوار مقـام سـليمان باشـا الفرنسـاوي وينحرفـان يسـارا إلى حَـوارٍ ترتفـع وتهبـط، وتمـرّ بجامـع صغـير مكتـوب عليـه «جامـع سـيدي محمـد بـن أبي بكـر الصـدي»، ومنـه إلى حـارة طويلـة مكتـوب عليهـا «بوابـة الـوداع» كانـت طريقًـا لمـرور جنـازات المـوتى، ومنهـا إلى كوبـري حديـث يجـاور المـترو، يصعدانـه لينتقـلا إلى بـراح وشـارع يـؤدِّي إلى باحـة مسـجد عمـرو بـن العـاص، ويجلسـان عـلى سـور السـاحة يتبـادلان مـا حفظا من أشـعار ومـا فقـداه في العاصمة مـن أهـل وذكريـات، وحينـما يـأتي صـوت أم كلثـوم مـن مقهـى بعيـد يشـاركهما الونـس، ويضـع عنوانًـا لليلتهـما. يـردِّدان معًـا «الحـب كـده»، فيمـر درويـش لطيـف يرقـص حولهـما مـردِّدًا: قـول للمغفَّـل يرحـم المجنـون.

تـرنّ ضحـكات الصديـق النموذجـي حتـى توقظ كل المـوتي المجاوريـن، بينـما يرتبـك صاحبنـا مـن الـكلام الـذي أرسـلته إليـه السـماء عـلى لسـان درويـش صـارخ، وحينـما يعـودان قـرب الفجـر إلى شـقة

الفرنساوي، لا يجد أمامه حلًّا للتعامل مع هذا الكائن العجيب الأسمر شديد سواد العين وطيبة القلب والتشتُّت إلا عبر «طقس»، فلكل قلب فخّ، وهذا الصديق فخّه في الطقوس المقدَّسة، يدخلها بقلب سليم. أدخله إلى غرفة الستائر البيضاء، أو الغرفة البيضاء، التي تقع دائمًا خلف الذاكرة، ويبدو دائمًا الوعي بها في خلفية الكادر. والغرفة البيضاء: هي غرفة مليئة بالستائر البيضاء والكنب المفروش بملاءات بيضاء، على كل كنبة عدد لا نهائيّ من البيض، مرصوص بعناية فائقة -كان عددها هائلًا بالفعل- وفي وسط الغرفة البيضاء تمامًا طاولة بيضاء مستديرة، عليها دوائر لا نهائية من الشموع المضاءة. لم ينسَ أن يأخذ معه الشواية الضخمة، أشعلها ووضع عليها الصديق النموذجي، مستمتعًا تمامًا برائحة الشواء التي تشبه البخور، فقد كان أطهر الأصدقاء، وحينما طالت النار قلبه الحارّ جدًّا كان يردِّد «عَجِبْتُ مِنْكَ وَمِنِّي.. يَا مُنْيَةَ الْمُتَمَنِّي.. أَدْنَيْتَنِي مِنْكَ حَتَّى.. ظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنِّي».

كانت هي المرة الأولى التي يشعر فيها بالوحدة والحزن داخل طائرة بخطوط خضراء، وتَمَنَّى لأول مرة أن يتدلَّى رأس المضيفة لتخبره بأي شيء، حتى لو أن تسُبَّه، أو يسمع تأوُّهاتها بالداخل، لكن كل شيء كان هادئًا بشكل حزين، وما زال السحاب الأبيض يُصِرّ على عدم الظهور، وما زالت الليلة طويلة، ورائحة البخور والشواء تعبق الطائرة... ولا بد أنه مطبّ هوائيّ عنيف أيقظه من نوم طويل، وحينما مسح البلل أسفل عينيه أدرك أنه كان يحلم بشيء حزين فشل في استرجاعه، فأدركته السعادة لأن استرجاع الحزن دائمًا أكثر حزنًا.

ولم يكُن من استدعاء المجنونة جدوى، فهي تأتي ولا تُستدعى. كانت حُرَّة تمامًا معه، يراها حينما تَوَدّ أن يراها، وتنصرف حينما تريد، كانت دائمًا على الحافَّة على وَشْك البكاء ومتماسكة وقوية وتكاد تنهار، وحينما تشعر أنها على الحافَّة تنطلق تاركة شعرها، ونادرًا ما يحدث، فبإمكانها حينما تشعر بذلك أن تنطلق تاركة شعرها يهرب منها

وهـي أمامـه عـلى كوبـري قـصر النيـل، وعـلى ظهرهـا شـنطتها الثقيلـة جـدًّا بالنسـبة إليهـا، أو توقـف ذلـك الأرمنـي العجـوز النحيـف القصـير في وسـط البلـد محاولـة أن تقتحـم نفـوره وتوجُّسـه الدائـم، ودائمًـا تنجـح في إقامـة حـوار معـه وهـو الهـارب مـع الجميـع. تشـعر أن هـؤلاء النافريـن يشـبهونها إلى حـدّ بعيـد. تجيـد التعامـل مـع الحـزانى. واحـدة تمامًا. تجلـس بمفردهـا في «سـتوريل» وتسـتطيع معدتهـا الصغـيرة جـدًّا أن تسـتوعب ثمـاني زجاجـات مـن البـيرة، وحتـى حينـما ينتابهـا القـيء في النهايـة مـع العَـرَق والإغـماء، تـأتي إليـه بوجـه رائـق أبيـض قـد هـرب منـه الـدم تمامًـا، وحاجباهـا الثقيـلان يضغطـان عـلى الملامـح فيـزداد الوجـه بَّهـاءً وإرهاقًـا، وتـأتي إليـه في مقهـى «الشـمس» متأخـرة دائمًـا عـن موعدهـا أكـثر مـن سـاعة، حتـى صـار موعدهـا الدائـم هـو بعـد الموعـد المحـدَّد بسـاعة. صغـيرة ومرهقـة وفـوق كتفهـا شـنطتها الثقيلـة تجلـس بصمتهـا واعتذارهـا وعينيهـا المبتلتـين، ووجههـا الشـاحب كأنـه الجـمال الخالـص، ويبتسـم لحضورهـا ويحتضنهـا هامسًـا:

حـضرَت الحزينـة ولم يعُـد داخلـه مـكان للحـزن.

لم يكُـن مـن عادتـه أن يـصرخ بصـوت عـالٍ في الفـترة الماضيـة، بـل مـن الممكـن أن نقـول إنـه مـن ذلـك النـوع مـن البـشر الذيـن ينزعجـون بشـدة عنـد سـماع الصـوت العـالي، وهـي سـمة صديقـة المقـرَّب النموذجـي حتـى القتـل.

كان صوتـه عاليًـا دائمًـا، ولكنـه كان يدخـل في أيـام كاملـة مـن الصمـت لا يقتحمـه خلالهـا أحـد. فقـط في غرفتـه مـع الكاسـيت عـالي الصـوت، ليخـرج بعـد ذلـك محمـرّ العينـين كمـن وُلـد في كهـف، ويكـون الليـل قـد انتصـف، وليـس في الصالـة سـواه، يقـرأ بـلا تركيـز في أي شيء ليـدور الحـوار بينهـما بـدءًا مـن أي نقطـة وانتهـاء بالشـعر.

هـو مـن أخميـم، أحـد مراكـز سـوهاج العريقـة، بلـدة قديمـة ومخيفـة تمتلـئ بالمـوتى، فهـي مدينـة تسـتقرّ فـوق كل العصـور، أسـفل مقابرهـا وبيوتهـا تقبـع الحضـارات القبطيـة واليونانيـة والفرعونيـة،

وتعجّ بالأولياء من سيدي كمال الدين شرقًا إلى الست عزيزة كما يسمِّيها أهل أخميم، وهي ابنة الصوفي الكبير ذي النون المصري، وتستقر غرب أخميم. وصديقه النموذجي حتى القتل -كما قلنا- من البداري القديمة أيضًا. حملا إرثهما وأتَيَا به إلى تلك الشقَّة القديمة. وثالثهما ابن المحافظة نفسها المولود في شقة، وهما يتندران من فكرة الشقق، فقد وُلِدا في بيوت. المحافظ على مواعيده وهما يكسران الوقت. وكان صديقه النموذجي مُولَعًا بالسير وأشعار الغزل، ولم يكُن هو مُولَعًا بشيء على الإطلاق، فصديقه قَلْب وحافظ للأشعار، وهو يُؤثِر قليلًا من الأبيات، ولم يلمس الوَجْدَ بيديه، وصديقه يحتفظ بالوجد في راحة يده إلى الصباح، في حالة هدم وبناء. كل ليلة يتسامران وثالثهما النائم مبكِّرًا تحت الغطاء يقاوم أصواتهما والبرد، يتمنى أن يصمتا أو أن يشاركهما الحوار، لكنه يكتفي بالمتابعة من تحت الغطاء في صمت. يقول صديقه:

وَإِنِّي لَأَسْتَغْشِي وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ

لَعَلَّ خَيَالاً مِنْكِ يَلْقَى خَيَالِيَا*

ويردّ هو:

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا

أَنْ لَا تُفَارِقَهُمْ.. فَالرَّاحِلُونَ هُمُو**

ويردّ هو:

نَصِيبُكَ مِنْ حَبِيبِكَ فِي حَيَاةٍ

نَصِيبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ***

بعيدًا عن صديقه والشعر والمُتَع التي لا تُمتِع سواهما، كان على الدوام ينتظر مجنونته التي تأتي

---

* مجنون ليلي.

** المتنبِّي.

*** المتنبِّي.

يومًا وتغيب بالشهور، أو يجلس مع الآخرين لمقتضيات الحوار الذي خرج برُوحِه منه وهرب إلى مقهى الشمس.

وقد أدركه الملل تمامًا كما يدركه في كل مرة ومع أي أحد. يعطي رأسَه حقَّ الإيماء فقط بالإيجاب والقَبول مطعِّمًا ذلك بالضحك أو الاعتراض، تبعًا «لم تأتِ اليوم أيضًا.. هل اتصلْتَ بها يا أستاذ؟».

يسأله الجارسون الذي اعتاد جلوسه منتظرًا بمفرده على الطاولة. ينتظر فيردّ مرتبكًا:

«نعم، اتصلت.. الجوّ أمس كان شديد الصعوبة، ألا تذكر البرد الذي جمَّدَنا هنا ودخلنا جميعًا للداخل حتى لاعبو الدومينو المحترفون؟ هي بخير وتسلّم عليك».

يهز رأسه بتعاطف مُبالَغ فيه ويذهب تلقائيًّا ليُحضِر له الشاي بحليب المعتاد، وقبل الشروع في الكتابة في أجندته الرمادية يُلقِي نظرة سريعة على العجوزين الأبديَّين ولعبتهما «الدومينو» التي

تنتهي، ولا ينسى أبدًا متابعة حوار صديقه الذي لن ينتهي قبل الصباح، وحينما تنتاب المقهى حالةٌ كاملةٌ من السُّوقيَّة في صياح المهزومين، فالكوتشينة وبذاءة المنتصرين وتَوافُد العاهرات والشواذّ من مختلف الجنسيات ودخان السجائر في صدره.

تكمل «صَباحُ» الحالة بصوتها الذي يعلو بلا مبرِّر ككل شيء في هذه الحياة، وفي هذه اللحظة تحديدًا: «مش قادرة أصبر مش قادرة.. هابعت له جواب من بكرة.. حسونة ما تردّ عَلَيَّا»

ينطلق في الكتابة كالمسعور، محاولًا أن يسوِّد أكبر كمية من الورق الأبيض، لعلّ هذا الحبر يخفِّف من حبره الداخلي، ولا يتوقَّف إلا حينما يصل إلى الشعور الكامل بأنه لم يعُد للبقاء جدوى.

***

داخـل الطائـرة يفتقـد رأس المضيفـة، ويصمـت بالفعـل ويسـتمع إليهـا تـردِّد في الكابينـة أشـعارًا بصـوت حزيـن، كأنهـا تتوسـل إلى الطيَّـار:

«يَا لَلْعَنَاء

يا لعناء الفرس أن يصبح كلبًا...

يا لعناء الكلب أن يصبح عصفورًا...

يا لعناء العصفور أن يصبح نحلة...

يا لعناء النحلة أن تصبح جوادًا...»*

كاد يطيـش صوابـه تمامًـا مـن الفرحـة حينـما سـمع صـوت المضيفـة ينطـق بالشـعر، ونظـر إلى أعـلى تلقائيًّـا، كان رأسـها بالفعـل يتـدلَّى مـن سـقف الطائـرة، وكاد يقفـز لكنـه آثـر السـكون ليسـمع مـا تقـول: «لقـد مللنـا مـن التنصُّـت عـلى ذاكرتـك التـي

---

* أشعار لوركا.

تحتلّ ذاتُك مساحة كبيرة منها، حاول أن تتذكر شيئًا لا يعنيك، لأن ذكرياتك الخاصَّة لا تعنينا في شيء»...

هَمّ أن يحكي لها قصة القرندلي الثالث، ووجه الشبه بينه وبين ذلك الرجل، لكن رأسها كان قد اختفى تمامًا، ولم يحاول أن يخبِّئ فرحته بظهورها المفاجئ في تلك اللحظة، وضحك بصوت عالٍ للمرة الأولى داخل الطائرة.

وفي شقَّة الفرنساوي وعلى الفراش واليوسفي يحيط بها وبه، ويعبق المكان برائحته الشتوية المميَّزة، ويرتشفان فصوصه، كان يحكي لها أنه يشعر في هذه الشقَّة أنه القرندلي الثالث، فسألته ضاحكةً: «وما قصته؟»، فامتصّ فصّ اليوسفي وضحك متذكِّرًا رفيقيه وقال: «كان القرندلى أحد ثلاثة من القرندلية، أعور مثلهم، دخل إلى بيت الفتيات الثلاث في ليلة من الليالي الألف، وأخبَرْنَه أن شرط البيات لديهن هو الحقيقة، أن يحكي حكاية بلا كذب ولماذا هو أعور، فقال:

ضاقت بي الحال فخرجت مسافرًا، وحينما اشتد بي الجوع والتعب رأيت على البعد بيتًا مضيئًا، فاقتربت وطلبت الضيافة لأجد هناك عشرة رجال عُور لهم قائد أعور. استضافوني وعشت معهم في لهو وطرب. كل ليلة يتوقفون فجأة عن اللهو والطرب ويطلبون من سيدهم الراتب، ليُحضِر لهم عشرة أطباق مغلَّفة، يكشفونها فيجدون بها ترابًا، يحطّونه على رؤوسهم ووجوههم ويدخلون في بكاء متواصل.

وحينما سألهم عن سرّ ذلك وهو القرندلي الغريب وفشلوا في إقناعه بالصمت، وضعوه في جلد خروف وأعطوه سِكِّينًا وألقوا به فوق جبل، فأتى الرُّخُّ وطار به فوق جبل آخر، وحينما بدأ في محاولة الْتِهامِه خرج من جلد الخروف شاهرًا في وجهه السكين الذي أعطوه له، ففزع الرُّخّ وتركه، ليجد نفسه أمام قصر بديع، وكان داخل القصر أربعون أميرة...

استضفنه لديهن في قصرهن الذي يُشبِه الجَنَّة، وكانت كل ليلة تَهَب له أميرةٌ نفسَها، ثم تركت الأميرات القصر ولبسن رِيشَهُنّ، فقد كُنّ من الجِنّ، فطِرْن لزيارة آبائهن ملوك الجِنّ وأعطينه مفاتيح الغرف الأربعين، إلى أن يَعُدْن بعد أربعين ليلة، ونَهَيْنَه عن فتح الغرفة الأخيرة، وحينما لم يتمكَّن من مقاومة فضوله وفتح الغرفة المنهيّ عنها، رأى حصانًا بديعًا فشل في مقاومة فضوله وركبه ليطير به فوق جبل بعيد، ويرفسه في عينه ويتركه أعور، ويطير ليجد نفسه أمام بيت الرجال العُور العشرة الذين رفضوا في هذه المرة أن يستضيفوه. لقد أصرّ على فتح الباب المغلق، وكان ذلك كافيًا لجعله يرى الدنيا بعين واحدة. والحقيقة كاملةً كافية لجعل أوديب أعمى، والجهل كافٍ جدًّا للاحتفاظ بالعينين مفتوحتين على الدوام».

لا بد أن أعراض الفلسفة قد أدركته، وقد كانت تنتابه كثيرًا حينما يتذكر أي دراما، تنتابه في البداية حالة من الذهول كأنه لم يفهم شيئًا مِمَّا

قـرأ، كان موقنًـا تمامًـا أنـه لا يـدرك شـيئًا، للوهلـة الأولى فقـط يشـعر بالذهـول، لكنـه حينـما يتحـدث عـن فيلـم أو روايـة أو قصيـدة يأخـذه التأويـل إلى زاويـة خاصَّـة، وبقـدر مـا يتـماسُّ هـذا العمـل مـع زاويتـه الخاصَّـة كان يـدرك ويتحـدث ويُـؤَوِّل، لكنـه قَـطُّ لم يـدّعِ فَهمَـه عمـلًا مـا، فلـم يكتـب قـط عمـلًا أدبيًّـا، ولم يصنـع فيلـمًا مـا لـكي يفهـم. شـعر باللـذة وهـزَّه الطـرب، كعادتـه دائمًـا حينـما يصـل إلى شيء مـا، مؤقَّـتٍ دائمًـا. أدرك أن عينـه معلَّقـة بِمَمَـرِّ المقهـى، فقـد عَوَّدَتـه ذلـك لتأخُّرهـا الدائـم، فتَعلَّـم كيـف يراقـب القادمـين عـلى اختلافهـم، وحفـظ كثـيرًا مـن الوجـوه والخطـوات القلقـة والهادئـة السـاذجة والغبيَّـة العابـرة، أو مـن سـتتوقَّف عـلى المقهـى قليـلًا، أو مـن تتوقَّـف للجلـوس كأنهـا قادمـة إلى بيتهـا المعتـاد، وكانـت عينـاه دائمًـا تقيـمان علاقـة أوثَـقَ بالعابريـن، فقـد علَّمَتـه المجنونـة والمقاهـي أن العابريـن أكـثر وجـودًا مـن غيرهـم، وأقَـلُّ سـماجةً وأكـثَرُ لُطفًـا وتأثـيرًا.

وعندما حدّق إلى السحاب الأبيض المجاور للنافذة، لم يكُن هناك أي معنًى لصوت فيروز أو صمت الكنائس أو وجه طفل أو موعد من المجنونة، فقط لم يكُن هناك معنى، تمامًا مثلما كان يشعر حين يُلقِي نفسه في أي تاكسي بأيّ اتجاه، وتصعد أيّ أغنيَّة من أصابع السائق الذي لن يتذكَّر وجهه بعد ذلك بالتأكيد.

كان السحاب أبيضَ تمامًا كلا شيء، أبله ككثيرين مِمَّن قال لهم أشياءَ ثمينة ونظروا إليه في بلاهة السحاب، فكان من الطبيعي أن لا يفهم مدى حزنه على تلك الأشياء التي لا يملك الوقت لكي يقولها لصديقه الشاعر. والشاعر هو أحد العابرين أيضًا، جمعَتهما المبالغات والهوس بالروايات الجميلة، يستطيعان أن يمنحا معًا وفي نَفَس واحد الألقاب بلا تَرَوٍّ ولا حذر، فهذا أعظم شاعر وذلك أعظم روائي، وتلك الجملة هي أجمل ما نطق به بشر... وهكذا كانت تقييماتهما المبالَغ فيها دائمًا لِمَا يُحِبَّان من كتب، ولِمَن يُحِبَّان مِن

كُتَّاب، وكذلك كانت قسوتهما المفرطة إذا خالف عمل فنّيّ هواهما، ليَكِيلَا له من القدح والسُّباب من كل صنف ولون، ويجرِّدا الكاتب الرديء حتى من إنسانيته، ويضحكا حتى تدمع عيناهما من فرط السخرية من فنان تشكيليّ سبعيني حكى لهما كيف رسم مفاتن القاصَّة المتعجرفة، بعد أن أقنعها أن أجسادنا تشبه نفوسنا، وأن أعضاءنا الحميمية تكشف بواطننا ومزايانا الروحية، وجديرة بالتخليد.

لم يجده في المقهى الـ«وسط بلدي» المكدَّس. التقاه في ميدان طلعت حرب، ولم يستطِع أن يخبره عن المجنونة وغيابها، وعن القطة التي نظرت إليه مرة فأصابه الجنون لشهور، وعن آخر حلم رآه، وعن أفكار كثيرة لم يكُن يمكن أن تُقال إلا لذلك الشخص الذي يلقاه صدفة أكيدة ليُكمِلا الحوار.

ويظلان ليلة بأكملها يتحدثان عن الجنون، وليلة أخرى عن الجِنّ، وكيف رأى كل منهما جِنَّه المختلف. واستعاد هو اللحظة التي أوشك فيها

صاحبه على الموت من الضحك وهو يصف له يد الجِنّيّ الصغير التي لمست إبهام قدمه الخارجة من تحت اللحاف، في إحدي ليالي الشتاء التي قضاها بمفرده في شقة شبرا، التي ظلت مغلقة قبل تلك الليلة عدة سنوات، وكيف امتدّت يد العفريت إلى إبهامه لتمسك به وهي يد هوائية باردة، بالغ في وصفها له حتى كاد الشاعر يقع مغشيًّا عليه من الضحك وهو يتابع مؤكِّدًا: يد هوائية والله... ألا تعرف اليد الهواء؟ يد هواء لعفريت في نحو سنّ التاسعة.. تقريبًا.. طفل.

يغرق الشاعر في الضحك ويسرح صاحبنا في ما جري له مع شقَّة شبرا، تلك الشقَّة التي ظلّ صاحبنا رافضًا دفع إيجارها ثلاث سنوات متتالية، في ردّ فعل طبيعي تجاه أصحابها الذين جرَّدوه من حقوق زيارة الأصدقاء ليلًا، لأن لديهم بناتٍ، وجرَّدوه من صعود السُّلَّم آمنًا حتى الدور الأخير، مردِّدين في استفزاز مقصود عبر أبواب شققهم المفتوحه دومًا: «مين اللي طالع؟»، فيردِّد اسمه

خمس مرات في الأدوار الخمسة، لأنه العازب الوحيد والغريب الوحيد في بيت استولت عليه وعلى كل شقه أسرة المالك وبناته وأولاده، وبقي هو مُطارَدًا معزولًا في شقته، فقرَّر أن يعاقبهم بعدم دفع الإيجار، حتى كسبوا القضية وطُرد منها إلى عدة أماكن، كان آخرها شقة الفرنساوي.

يحاول أن ينسى تلك الحادثة ويفشل، فقد كان سببًا رئيسيًّا لحزن أبيه سنوات طويلة، بعد أن أفقد العائلة شقَّة إيجار قديم بالقاهرة، جاهد الأب كثيرًا في أواخر السبعينيات حتى يحصل عليها، وها هو ذا ابنه الأصغر يفقدها بنزق ورعونة، وقبل أن تتحول ضحكات الصديق الشاعر إلى دمع لامع تعاطُفًا مع ما لمع في عينيه، يهمس مغيِّرًا الموضوع: «سمعت أنك تأكل أصحابك.. فلتجعلني أكله خفيفة». ويردّ هو: «ليس هناك أخف من الأرانب».

وأغمض عينيه وذبحه وسلخه سريعًا، فلا بد أن تسلخ الأرنب سريعًا جدًّا بعد الذبح، وإلا التصق جلده بجسده إلى الأبد. نحيلًا جدًّا كان على المقلاة، ولذيذًا أيضًا طعمه ككلامه.

داخل الطائرة..

كان السحاب لا يفهم شيئًا على الإطلاق، وما زال لونه أبيض بلا معنى، حتى شعر ببرودة خفيفة، وحينما تَسرَّب هذا الصديق إلى ذاكرته لم يفتقد رأس المضيفة أو صوتها، فقط ملأه تذكُّره له بالهواجس، كعادته حين يراه، وشعر أنه قد همس له عن مسافرين كثيرين جدًّا غير مرئيين يملؤون الطائرة أمامه، كعادته في تصديقه هواجسَ صديقه أكثر من تصديقه حقائقَ كثيرة لا معنى لها.

فكّ حزامه، وتَجرَّأ لأول مرة في تلك الرحلة على الانتقال من الكرسيّ الخاص به وتَجوَّل بين الكراسي الفارغة، محاولًا أن يتحسس أنفاس المسافرين غير المرئيين. اقترب من الكابينة وهُيِّئ له أنه سمع شخيرًا خافتًا، وقبل أن يتسرب الرعب إليه من فكرة الطيَّار النائم الذي يقود الطائرة التي هو

بداخلها، كان صديقة الشاعر يشير إليه أن ينظر إلى الكرسي الخاص به، الذي أصبح الآن بعيدًا تمامًا في آخر الطائرة، ويخبره أن الكرسي الفارغ في الطائرة هو أبلغ صورة للقدر العظيم الغامض، وأن الكراسيّ دائمًا تنتظر أصحابها، وأنه لا وجود أبدًا لكرسي فارغ، فالكرسي إما يحمل شخصًا وإما ينتظر شخصًا آخَر، ليعود ويربط حزامه ويُغمِض عينيه حتى لا يدفعه شاعر الذاكرة بأفكاره إلى الدوار أو القفز من نافذة الطائرة. خطفه صوت المضيفة الصارخ وجعله يقفز من كرسيه: يوشك محرّك على الاحتراق، وعليك فورًا أن تُلقِي بأحد من ذاكرتك حتى لا نُضطرّ إلى فقد محرّك آخر.

وتقريبًا غمزَت له بعينها هذه المرة، قبل أن يختفي رأسها تمامًا. وحينما فكّر في مَن عليه أن يُلقِي من ذاكرته، ازدحمت ذاكرته بطابور طويل، حاول كل واحد أن يدفع مَن أمامَه حتى لا يسقط هو، وفشل في إسقاط أي منهم. هو يريد أن يحتفظ بالجميع، بالمقيمين وبالعابرين وبالمجنونة

وبأبيه وأمه وإخوته وجدوده وكتبه وحزنه أيضًا، وأخذ يضرب برأسه بعنف شديد في ظهر الكرسي المقابل، حتى راح في إغماءة طويلة، لا يدري فيها مَن سقط ومن تَشَبَّث.

***

القمر صديق المخبولين

طرقــتَ زجــاج النافــذة، وفتــح عينيــه. وجدهــا هنــاك مُعَلَّقــة بــين الســحاب بشــفتيها المكتنزتــين وأسـنانها المكسـورة الرائعـة، والزغـب الخفيـف حـول خدَّيهـا وحاجبيهـا الثقيلـين. كانـت تُلعّبهـما وتغنِّـي لمنـير «بالحَـظّ وبالصُّـدَفْ.. قلبـك نشّـن حدَفْ...وقبـل مـا قلبـي يهـرب.. قلبـك صـاب الهـدف.. مالحقتـش اقـول يـا سـاتر.. ولا قلبـي خَـد لُـه سـاتر»، وترفـرف خـارج الطائـرة دون أن تسـقط.

وحينــما أتــت إلى شــقّته للمــرة الثانيــة، أتــت بمفردهــا في ظهــر الجمعــة، وكان لديــه ضيــوف كثـيرون، سـمع صوتهـا وهـو يغسـل وجهـه العابـس المسـتيقظ، وخـرج مبتـلًّا ليخبرهـا أن تنتظـر عـلى أول الشـارع. لم يكُـن يعرفهـا جيـدًا بعـد، لكنـه قبَّـل يدهـا وقـال: لا تبـدو ملامحـي لطيفـة عنـد الاسـتيقاظ، هـا؟

فترد: كلنا هكذا عند الاستيقاظ.

ويسأل: إلى أين؟

فتردّ: إلى حيث تريد أنت.

ويستمرّ بينهما الحكي من الثانية عشرة ظهرًا إلى الثامنة ليلًا. في مقهى النرجيلة، تَكلّمت كثيرًا، وصدّقَها حينما أخبرته عن جدها الذي فتح عينيه لها وألقى نظرة أخيرة عليها بعد أن مات إلى جوارها. وتَعجَّب من كرهها للقطط، لكنه قبَّل يدها هناك ولم يكُن يعرفها جيدًا، وهنا طلب منها أن تظلّ حيَّة ستين سنة أخرى، ليريا نفسَيهِما عجوزَين متحابَّيْن، وعندما احمرّ وجهها تمامًا على فراشه أضاءت، فعرف الطريق إلى موضع جَنَّاتها وقَبَّله، وكانت هي المرة الأولى التي يقبِّل فيها باب فتاة، فيفوح كالنعناع ويمتلئ رِيقُه بطعم العناب الدافئ، وشفتاه بالندى، ويغمض عينيه ويفتحهما مرة أخرى ليجدها فوقه جسدًا ولا جسدًا، ويهيش شعرها كثيرًا حتى يغطِّي وجهها به، ويهمس لنهدها حينما طار خارج قفصه الأسود الدانتيل «القمر صديق المخبولين»، فترك

علامـة أسـفل رقبتـه: «قـد لا أراك قريبًـا».

ويُغمِـض عينـه ويفتحهـما مـرة أخـرى في متعـة فـلا يجدهـا. لـن يجـري خلفهـا، فقـد كان يعلـم تمامًـا أنها سـتأتي بمحـض إرادتهـا وترقـص خلـف نافـذة الطائـرة وتختفـي. اشـتاق للمـرة الأولى أن يقفـز مـن الطائـرة ويلقاهـا ويقتسـم كل منهـما الآخـر فيصبحـا واحـدًا صحيحًـا. يلمسـها حتـى يصبـح جسـده أكـثر رقـة، ويضغطهـا حتـى تصبـح أكـثر جنونًـا، ويتكلـمان بفـم واحـد حتـى يصمـت الكـون تمامًـا، وحينـما يدخلهـا لـن يخـرج مـن طائرتهـا إلى الأبـد، لتحلِّـق بـه في بـلاد جنونهـا حتـى يفيـق عـلى اختفائهـا المفاجـئ.

***

في الطائـرة ابتسـم لوجـه المضيفـة التـي وضعـت الطعـام أمامـه، وأمسـك يدهـا في جـرأة غـير معتـادة وهمـس:

- عـلى المـرء أن ينظـر إلى حبيبـه كثـيرًا لأن الذاكـرة خوَّانـة.

- عـلى المـرء أن يلمـس حبيبـه كثـيرًا لأن اللمـس ينعـش الذاكـرة.

- عـلى المـرء أن يسـكن كهـف حبيبـه ولا يخـرج منـه أبـدًا.

سـحبت يدهـا مـن يـده بلطـف وهمسـت: لا تـدَّعِ الجـرأة أيهـا الخجـول، واسـتمتع بوجبتـك قبـل أن تذهـب سـخونتها، فليـس للخجولـين وجبـات سـاخنة.

***

كان خجـولًا مـن العـري، وحتـى حينـما رآهـا عاريـة أمامـه للمـرة الأولى لم يتمالـك نفسـه وأغمـض عينيـه، وحينـما اكتشـف أنهـا مغمضـة عينيهـا هـي أيضًـا راح يستكشـفها عـلى خجـل.. «يـا اللـه! يـا اللـه!»، كان يـردّد هامسًـا وهـو يتأمـل النعومـة والشـعر الخفيـف، واقـترب بشـفتيه مـن ذلـك الكائـن السـاحر الهامـد المشـتعل، وأخـذ يهمـس لـه، والكائـن يـردّ عـلى همسـاته بالاحمـرار والنـدى، ثـم تنفـرج شـفتاه تدريجيًّـا عـن ابتسـامة لهـا ملمـس حَنُـون، وغـاص في الـسِّرّ.

*** والجنوبيـون مولعـون بالنسـاء وخجولـون جـدًّا مـن العـري**

- كان عُريًـا مختلفًـا تمامًـا عـن عُـرْي طفـل جارتـه المدلَّـل هنـاك في الفرنسـاوي. كان عاريًـا عـلى الـدوام بـين يديهـا. في البلكونـة تجلـس طـوال النهـار تحدّثـه وتداعـب عريـه، وتسـبّ لـه أبـاه الغائـب وتصنـع منـه زوجًـا، كان دائمًـا يسـمعها مـن خلـف شُـبَّاكه ويفتـح عينيـه ليسـمعها ويـرى طفلهـا في السـقف

مُعَلَّقًا وعاريًا، ينظر إليه بمؤخِّرته العارية التي يشكو إليه الأحمر منها لغةَ حوار عنيف دار بينها وأصابع أمه العصبية التي قرصَته. كان عُريًا مختلفًا بالتأكيد عن عري رمضان هبيلة، الذي ظلّ يجوب الشوارع عاريًا يطلب «سوجارة»، حتى صار عريه مألوفًا لدى أعيُن المارة، وحينما كان مندسًّا داخل جلباب أبيض نظيف، استغرب الجميع من منظره ولم يعرفوا أبدًا ذلك الميت بعد أن ارتدى كفنه.

كان عُرْيًا يفوح بالحب، عجز عن وصفه حتى لصديقه الأقرب، رغم أنهما كانا قد اتفقا في ما يخصّ النساء أن يحكي كل منهما للآخَر، ويبالغ في الكذب حتى يستمتع الآخَر، ويفتتحا الحوار دائمًا بجملة: «احكي وألّف واكدب براحتك».

لكن حينما يتعلق الأمر بالقلب يصمت ولا يحكي.

***

تركَتـه وحيـدًا في طائـرة بيضـاء بخطـوط خـضراء، فقـط تركـت أنفاسـها تخـرج حاملـة رائحتهـا مـع كل نفـس مـن أنفـاس الذاكـرة، حينـما تَأبَّـط كل منهـما الآخـر وطـار في قلـب ميـدان التحريـر قـرب نصـف الليـل، لم يكُـن يراهـما أحـد، كانـا يخترقـان النـاس فـلا يشـعرون، يتبـادلان الاختبـاء، علّمهـا هـو هـذه اللعبـة «خبينـي جـوّا البلوفـر»، وعلّمهـا أشـياءَ أخـرى عديـدة، علّمهـا السـكون حتـى تسـمعه قبـل أن يـرنّ جـرس التليفـون لديهـا، علّمهـا أن تـرى نفسـه بعـد أن يصفهـا هـو لهـا أكـثر مـن مـرة عـبر المسـافات البعيـدة، وعلّمهـا الشـعور مِـن بُعـدٍ بمـا يشـعر، فيبتسـمان معًـا ويـشردان معًـا وتسـقط أحيانًـا دمعـة في نفـس اللحظـة.

***

داخل الطائرة..

اقتربت المضيفة في ضيق وناولته «باراشوت» وهي تجتهد في الشرح، وحينما نظر بلا فهم، ألبسته إياه وفتحت النافذة ودفعته بنفاد صبر. كانت لحظات رائعة وهو يهوي إلى الأبد، وروحه يلاعبها الهواء كما اتفق، ليستقرّ على رمال طريَّة وضحكة المضيفة الساخرة تملأ جوانب الصحراء.

***

لم يكُـن في صحـراء إغماءتـه شيء سـوى رمـال وصمـت وشـمس لا ترحـم، لكـن ليـلى مـراد أنقذتـه تمامًـا مـن العطـش حينـما رأى عـلى البعـد ظِـلًّا ينبعـث منـه صوتهـا.

«والـلي انشـغل بهـوى الأحبـاب.. عذابـه راحـة وراحتـه عـذاب».

فوضـع يـده في جيبـه وأعطـى صوتهـا ظهـره وانطلق مصفِّرًا.

«أنـا قلبـي خـالي.. والـلا انشـغل بـك؟ مـش عارفـة مـالي».

وحينـما عـاد مـن إغماءتـه إلى كرسـيه بالطائـرة، كانـت المضيفـة تدنـدن للطيَّـار مُكمِلـة نفـس الأغنية: «يمكـن باحِبّـك... يمكـن باحِبّـك»، وكان قد فتـح عينيه وتَحسَّـس رأسـه الـذي أصابـه بعـض الـورم، وأذنـه التـي بهـا بقايـا صـوت ليـلي مـراد، الـذي كان ينبعـث

في أوقات خاصَّة، ما جعله متأكدًا تمامًا أن أحدهم قد سقط من ذاكرته في إغماءته السابقة، لكن نغزة قوية في قلبه جعلته يشك في سقوط آخر، لم يكُن ينبغي له ذلك وعزّ عليه تَذكُّره، فعاد بإرادته إلى صحراء إغماءته فلم يجد هناك ظلًّا ينبعث منه صوت، ولم يجد مَن سقط من ذاكرته، فقط بعض الأصدقاء الذين لم يرَوْه على الإطلاق ولم يتحدثوا عنه ولو بتهكُّم كما كانوا يفعلون. حاول أن يثير انتباههم بصنع زوبعة من الرمل أو بكتابة اسمه في الهواء كاملًا بإصبعه أمام عين كل واحد منهم على حدة، لكنهم كانوا منهمكين في الحديث عن رجل واعدهم هنا وهو على وشك المجيء، وحينما نظر أقربهم إليه كانت عينه لا تراه. تلاقت نَظْرتاهما تمامًا لكن نظرة أقربهم إليه لم تكُن ترى سوى الفراغ. اقترب منه وأشار إلى الباقين فانهمكوا في حفر الرمال أسفل قدمه مباشرة، وحينما أتَمُّوا الحفر جلسوا يبتسمون وهم يحاولون أن ينظروا إلى الشمس أعلاهم، فتغلق أعينهم وتتحوّل ابتساماتهم إلى ضحك صريح،

وحينـما اصفـرّت الشـمس فوقهـم نفضـوا ثيابهـم وانصرفـوا في هـدوء، دون أن ينظـروا خلفهـم إلى الحفـرة الفارغـة، وقبـل أن يديـر هـو ظهـره عائـدًا إلى كرسـيه بالطائـرة كان نعـش فـارغ يطـير فـوق رأسـه ليسـتقرّ في الحفـرة، وقبـل أن يجلـس تمامًـا في كرسـيه هُيِّـئ لـه أن خشـب النعـش همـس بخشـونة، حتـى تَحرَّكَـت الرمـال بجـواره عـن أمنيَّـة أن تنظـر إليـه قطعـة دامعـة حتـى تخـف ضَمَّـة الرمـل البـارد، وكـم كان طعـم فنجـان القهـوة الـمُرّ مناسـبًا تمامًـا لفمـه في هـذه اللحظـة، حتـى إنـه رفـع رأسـه إلى سـقف الطائـرة، تعبـيرًا عـن امتنانـه للمضيفـة التـي أحـضرت ذلـك الفنجـان المناسـب لـلألم في رأسـه مـن تلـك الرحلـة الأخـيرة. تَلـذَّذ بطعـم القهـوة التـي كانـت مُـرَّة قليـلًا عـما يحـبّ، وتابـع اللمبـات الصفـراء المتناثـرة داخـل الطائـرة ليشـعر ببعـض الـدفء، لأن أطرافـه كانـت بـاردة والطائـرة صامتـة وفارغـة والنافـذة مظلمـة، وكل شيء سـاكنًا تمامًـا، حتـى نفـخ برعـب ليتأكّـد مـن وجـود التذكـرة، ومـلأه خـوف مـن كارثـة لا يفهمهـا. واختفـى صـوت الصمـت، وحلّـت

الظلمـة ولم يعُـد هنـاك شيء عـلى الإطـلاق.

***

المجنونة حاولت الانتحار بقطع الشرايين.. هل سمع أحدكم بهذا الخبر بعد؟

لم يكُن خبرًا على شاشة الـT.V أمام كرسيِّه على الطائرة، فقد أخبره صديقه بذلك، وكان عليه أن يعرف أنها الآن بالتأكيد في أفضل حالاتها على الإطلاق، فالمنتحرون غالبًا ما يصابون بحالة من البهجة بعد فشل محاولة الانتحار، ولكن محاولتها الأولى كانت أكثر لطفًا من قطع الشرايين، فالموت الاختياري عبر الكوكايين ووَقْف ضربات القلب تمامًا، والوصول إلى رؤية الروح داخل إطار ذهبي، يحوم فوق رأسها، ومشاهدة نفسها وهي تبتسم في أعلى الغرفة وهي تلعّب حاجبَيها بحركتها المفضلة، بوضع يديها بجوار صدغيها. كان واثقًا أنها ستكرر تلك المحالاوت الفاشلة، وكان واثقًا أيضًا من نجاحها في النهاية، فلن تكون مفاجأة على الإطلاق حين يتلقَّى خبر موتها، بخاصَّة أنه سيكون بعيدًا جدًّا في هذا الوقت؛ ربما سيكون في بلد آخَر، لكن الخبر سيأتيه سريعًا وعبر صديق

لا يعرفه تمام المعرفة، سيخبره عَرَضًا أن فلانة قد انتحرت عبر إلقاء نفسها من مكان عالٍ عاريةً تمامًا، حينما شرَّحوا جثتها وجدوا في دمائها كمية مخدِّر تصلح للاتّجار وللتعاطي، وفي معدتها الصغيرة أكثر من ١٢ زجاجة بيرة، ولن يكون الرقم تعبيرًا عن الكَمِّية فقط، بل سيجدون بالفعل ١٢ زجاجة خضراء مُغلَقة ومثلَّجة داخل معدتها، ويقول الطبيب الشرعي الذي أصابه الجنون التامّ بعد ذلك إنه شاهدها تغمز بحاجبَيها حينما لاحظت دهشةً في عينيه، وطلبَت منه أن يحتسي البيرة قبل أن تفتر وتصبح بلا طعم.

كحياتها السابقة، لن يفاجأ بالتأكيد لدى سماعه تلك الأخبار، وسينتظرها كالعادة في الفرنساوي، الثانية عشرة ظهرًا، بنفس القلق والتوتُّر، وإحساسه الدائم أنها قادمة لا محالة، بل سيخرج عند تأخُّرها ليحادثها تليفونيًّا.

وستخبره والدتها بصوتها الجاف أنها نائمة تمامًا، وأنها سوف تخبرها «بعدين»، لكنها لن تخبرها..

فيسبّ لها ولأمها ١٠٠ مِلّة، ويقرِّر أن لا يكلمها باقي عمره، وبالفعل يحادثها ليلًا مرة أخرى ليتأكد أن خبر انتحارها لم يكُن مفاجأة على الإطلاق، وأنه عليه أن يذهب فورًا إلى مقهى «الشمس» ليواصل الكتابة في روايته الرمادية، تمامًا كعلاقاته غير المحدَّدة وحياة المجنونة وموتها غير المؤكَّدَين وغير المفاجِئَين على الإطلاق.

معها لم يكُن شيء مؤكَّدًا أو معدومًا أو موجودًا، ماذا ستفعل بعد انتحارها؟ بالتأكيد ستخرج إلى مكان ساحلي، باخرة وسط النيل أو مركب صغير، بمفردها أو بصحبة مجموعة لا تنتهي من الأصدقاء والبيرة، والحزن المستتر، قد ترقص قليلًا أو تضحك بشكل مبالَغ فيه، لكنها بالتأكيد لن تظلّ في بيتها بعد محاولة الانتحار الفاشلة، هي تعلم تمامًا أن تلك المحاولة لن تنجح قبل أن تشرع فيها، لكنها طريقتها العجيبة في التعبير عن الزهق والملل ممن يحيطون بها. الشيء الوحيد المحزن هو أنها لن تترك أثرًا مُذهِلا لدى موتها. لن تترك ورقة مثلا

تكتب بها كلمات قليلة تُحزِن بها من يقرؤها لفترات طويلة. فقط ستموت في حزن، دون أثر صغير يخفِّف ذلك الحزن الأبدي في صورة حزن ظاهر. ستموت تاركة شعورًا باطنيًّا لدى كل من عرفوها بالحزن الصعب الذي يظلِّله دائمًا كثير من الابتسامات، وذلك الشعور الذي ينتابك حينما يسقط طفل صغير من مكان مرتفع قريب جدًّا من يدك الممتدة ولن تلحق به أبدًا، فقط تترك شعورًا يمكن اختصاره في الصعوبة. صعوبة أشياء كثيرة لا يمكن أن نتعامل معها بعد ذلك بسهولة، لكنها أبدًا لن تترك دمعة ظاهرة على خَدّ المسافر الذي يحدق كثيرًا جدًّا الآن إلى سقف الطائرة، باحثًا عن وجه المضيفة الذي يرجو أن ينظر إليه الآن، ليخفف كثيرًا من صعوبة أن يظلّ مسافرًا وحيدًا مثله في طائرة بيضاء بخطوط خضراء.

***

في شقة الفرنساوي..

حينما دخل عليه صديقه النموذجي حتى القتل، طلب منه أن يقول كل واحد منهما للآخر خبرًا سعيدًا كاذبًا كل يوم، ليتحمَّلا الحياة.

- اشتريت شقة صغيّرة امبارح.

- وأنا خطبت بنت جميلة.

- أنهيت الرواية واقتربت من كتابة سيناريو الفيلم.

- وأنا سأسافر غدًا إلى إيطاليا لمدة أسبوع.

وتعلو ما بينهما الضحكات، هكذا اتفق قديمًا مع صديقه النموذجي حتى القتل أن يتبادلا يوميًّا خبرًا سارًّا على الأقلّ، وسط ذهول الحاضرين، ينطلقان معًا في تفاصيل الأخبار السارَّة الكاذبة، عن نصب الإيطاليين وسحر بناتهم، عن البندقية

تلك المدينة الساحرة، وعن الأصوات العالية هناك والأيدي التي تتحرك كثيرًا مع الكلام أو الأكل أو السرقة أو القتال، وكيف أنه كان معرَّضًا بقوة وتحت الضغط للانضمام إلى عصابات المافيا، هناك يخرجون من الأكاذيب إلى السينما، ومن الأب الروحي إلى كوم الزبالة في شقة الفرنساوي، ومن شقة الفرنساوي إلى شقق الجميع التي اتفقا أن يتعاملا على أنها شققهما، كانا يحبان كل البيوت التي تستضيفهما، ويكرهان أصحابها المنافقين، والكَذَبة، القوَّادين، ينطلقان إلى حمَّاماتها ويسرعان إلى جهاز التليفون هناك ليحادثا كل البشر الذين لا يعرفونهما، ثم يعودان في النهاية إلى الفرنساوي، يلقيان التحية على قبر سليمان باشا الفرنساوي، ويَلِجَان داخل الشقَّة في غضب وسخط.

***

داخل الطائرة..

لا بد أنهم أعادوه مرة أخرى إلى الطائرة بعد أن تاه في الصحراء، وها هو ذا يحدّق إلى سقف الطائرة، ولا شيء يحدث على الإطلاق، لكن رأس المضيفة تَدَلَّى وأراحت شعرها ورأى وجهَها الأبيض وعينيها الفاتنتَين بوضوح، وأخبرته أن يربط حزامه لأن الطائرة هابطة، وعَلَت الموسيقى الصاخبة وشاهد الظلَّين يرقصان خلف الكابينة، بينما الطائرة تهتزّ كأنها تسقط، وأضواء باهرة تغمر المكان أسفله. واصلت الطائرة هبوطها الحادّ وواصلت الموسيقى صعودها الصاخب. أغمض عينيه وانهمرت الأنوار الساطعة. ربما كان هناك في ساحة المطار، كانت الأنوار تغشِّي عينيه تمامًا، فقط أنوار وبشر يهرولون، وتَعرَّف فيهم على جده يحمل شنطته ويجري، هرول خلفه لكنه لم يلحق به. كانت الأزمنة تختلف تلقائيًّا بمجرَّد الانتقال من مكان إلى آخر داخل ساحة المطار.

كان الجـوّ ليـلًا وأضـواءً، وحينـما تجـاوز السـاحة كان النهـار والمسـاحات الخـضراء والتماثيـل تغمـر كل شيء، كانـت تماثيـل لأصدقائـه جميعًـا بأجسـاد نصفها حيـوان والآخـر آدميّ، وطيور وعشـاق ولافتـات في كل مـكان، والمجنونـة في منتصـف الميـدان ترتـدي شـورت جنيـز قصـيرًا وتـؤكّل الحـمام الـذي تَجمَّـع حولهـا، وحينـما اقـترب منهـا طـاروا جميعًـا وطـارت معهـم، لم يتعـرّف عـلى وجـه آخـر مألـوف سـوى التماثيـل التـي تحمـل وجـوه أصدقائـه القدامـي، لكنـه واصـل السـير وخلفـه كانـت المضيفـة ترقـص مـع رجـل يرتـدي ملابـس طيَّـار، لم يكُـن يحمـل حقيبـة وكان خفيفًـا جـدًّا، وظلـت الأماكـن والأزمنـة تتنقـل مـن حولـه. لم يقـف ليتَحـدَّث مـع أحـد، فقـد وقـف كثـيرًا قبـل ذلـك، وتَحـدَّث أكـثر، كان مُفـرَدًا تمامًـا، وهنـاك في الفرنسـاوي كان يتقاسـمه الجميـع، لا يسـتطيع أن يغلـق عينيـه أو شـفتيه أو أذنيـه، عليـه دائمًـا أن يتجـاوب وأن يتحـاور وأن يُصغِـي، أن ينتظـر المجنونـة في المقهـى المشـمس وأن يمـرّ بصديقـه العابـر المقيـم، أو يذهـب للسـؤال عـن الشـاعر دامـع العينـين، وأن

يســهر إلى الصبــاح مــع الصديــق النموذجــي حتــى القتــل.

***

في الميدان الذي هبطَت فيه الطائرة، ها هو ذا يرى المجنونة تنطلق بعيدًا في الشوارع المتَّسِعة والأزمنة المتتابعة، تؤكّل الحمام أو تتسلق التماثيل أو تكتب على أسفلت الشوارع بخَطّ أحمر كبير جملتها الخالدة «في السما مسرح وسِيما كمان»، وترسم أشياء تخصّها. لا يحاول أن يجذبها لتنظر إليه، فقط يتابعها في هدوء دون أن يتوقف، كما يتأمل تمثال صديقه الشاعر دامع العينين، وهو على هيئة رجل نصفه الأسفل أرنب والنصف الآخر لإنسان بجناح منطلق إلى أسفل، أو الآخر السمكة التي بذيل ثعبان، والتي كلّما مر بها شعر بالقلق، أو تلك القطط المحنَّطة برائحة الموتى التي جلس معها كثيرًا في وسط البلد، لا يأخذ من موتهم سوى الرائحة ومن قططهم إلا الخيانة. لم يتوقف لحظة واحدة منذ الهبوط إلا أمام الحديقة الخضراء.

***

في شـقة الفرنسـاوي، يحـكي للصديـق النموذجـي حتـى القتـل عـن الجَـدّ الثالـث، والصديـق يحـكي عـن الثـأر الـذي راح فيـه أحـد أعمامه الشـباب، الـذي كان أقـرب الأعـمام إلى قلبـه، وهـو يتابـع باهتـمام تمهيـدًا للـرَّدّ بحكايـة مناسـبة، والثالـث يتثـاءب مقاومًـا النوم وسـخف حكاياتهـما.

يتحـدّث دائمًـا عـن جَـدّه الـذي عـاش أكـثر مـن مئـة عـام، ذلـك العمـدة الـذي كان لـه أحـد عـشر خـالًا، ورباه جَـدّه لأمـه حـين كان طفـلًا مختلفًـا، وها هـم أولاء في الشاشـة جميـع الأطفـال يجلسـون عـلى الأرض بينـما يضـع هـو طوبًـا ليجلـس مرتفعًـا، وهـا هـو ذا العمـدة القديـم خفيـف العقـل، كلّـما رأى طفـلًا صغـيرًا يرتـدي طاقيـة جديـدة خطفهـا منـه، فيمـر الطفـل المختلـف فيقـول لـه العمـدة المتكـئ والمولَـع بخطـف طواقـي الأطفـال الصغـار وإغاظتهـم إلى درجـة البـكاء، فيهتـف: «هـات الطاقيـة يـا ولـد الصبيّـة».

فيردّ الصبي بثقة: لما تشوف حلمة ودن امك يا عمدة.

وينطلق هاربًا، وعلى الشاشة يقف الخفر أمام بيت جَدّ الصبيّ لأمه في طلب الصبيّ، فيقف أمامهم الأحد عشر خالًا فيفر الخفراء من أمامهم خاسرين.

ويكبر الصبي ويصبح عمدة في حياة أبيه الذي طالما شارك الفقراء أرزاقهم، واقتسم معهم الجاموسة ونصف المحصول. ها هي ذي بيوته يملؤها الخراب، بينما ابنه الذي طُرد قديمًا مع أمه يصبح عمدة، ويتزوَّج أربع نساء، وأسفل قدميه تصحن القهوة وأصابعه المرتعشة تلفّ السيجار، وتكثر الأساطير عن العجوز الفاني الجبار الذي ضرب لصًّا شابًّا بيده المرتعشة، فخَرّ الفتى على الأرض من شِدّة وطأة كَفّ الجَدّ المرتعشة على خده. الجَدّ الذي يدخّن سيجارة من سيجارة ويتعشى بخمسة أزواج من الحمام، ويعمر في الأرض إلى ما بعد المئة بعشر سنوات، وتحت

قدميه عبد اللاه غفيره الفاني، الذي كان يعاني من مرض نفسيّ سمَّاه العامة وقتها بالغزالة، وحينما تأتيه تلك «الغزالة» ويهيج ويلمح الجَدّ ما لاح على وجهه من انفعال، يشير إليه أن يصحن البن في الهون لينشغل، وبالفعل ينهال عبد الله على البن في الهون بيد الهون، ويدق بكل عزمه دقائق متواصلة، حتى يهدأ وقد صار البن مطحونًا ومتحملًا لكل مشكلات عبد اللاه النفسية التي لحقها الجَدّ الحصيف، بينما يلهث عبد اللاه في صمت وشرود.

***

الميدان المجاور لمربض الطائرات..

بـدأت تخفـت إضـاءة الليـل في الحديقـة العامـة في الميـدان، وفي طرفهـا كانـت المجنونـة تبـكي بشـدّة أسـفل تمثـال يشـبهه تمامًـا، لم يقـترب منهـا لكنـه واصـل السـير ليجـد شاشـة عـرض أخـرى، تعـرض قصـة أخـرى لجـده الـذي حـرم ابنًـا لـه وابنـة مـن المـيراث، لأن أُمَّهـما سـبَّته ذات يـوم، وفي نهايـة القصـة لا بـد مـن التنويـه بـأن الابـن هـو الـذي حُـرم فقـط، لأن البنـات لم يكُـن لهُـنَّ مـيراث لديـه. واصـل السـير ليجـد المجنونـة تقـف أمامـه وتطلـب منـه أن يشـعل لهـا سـيجارتها. يشـعلها لهـا وتتركـه وتواصـل سـيرها، وكان المقهـى خاليًـا تمامًـا، وكان فنجـان القهـوة أمامـه يذكِّـره غـرام جَـدِّه الأكـبر بالقهـوة وعبـد الـلاه الغفـير الـذي يجلـس أسـفل قدمـه ليصحـن الـبن ويغنِّـي: «اغـلي يـا كنكـة الـبن رزقـك عنـد اللـه مضمـون».

- أفـرغ الفنجـان في فمـه وامتـصّ الـبن الثقيـل في

قعـره كـما اعتـاد، ثـم قلّبـه فـترة حتـى يجـفّ، ثـم أخـذ في تَأمُّلـه كـما اعتـاد منـذ أيـام الجامعـة. كان قـد اعتـاد أن يقـرأ للفتيـات الفنجـان، واكتشـف قـراءة الفنجـان والأبـراج وعـرف أنهـما أهـمّ الأحاديـث وأكثرهـا جاذبيـة لـدى البنـات.

- علـم أن الفنجـان رقـم وحـرف، رسـومات مكـرَّرة يمكـن ربطهـا وصنـع حواديـت متصلـة منهـا، تخلـق توتُّـرًا وإثـارة لـدى صاحبـة الفنجـان، وكانـت الفناجين تشـبه أصحابهـا إلى حـد بعيـد، المضطربـات منهـن يظهـر فنجانهـن مليئًـا بالمسـاحات البيضـاء وكتـل البن الثقيلـة، ومعظمهـن لا يُحبِـبْن شرب القهـوة أساسًـا، وهُـنّ أكـثر رغبـةً في قـراءة الفنجـان، ودائمًـا فنجـان المضطربـة منهـن يحمـل رسـمًا لراقصـة بـدف ورجـل يعطـي ظهـره لامـرأة، وطائـر قبيـح يشـدّ أخـرى مـن الخلـف، وأرقـام لا تخـرج عـن (٤، ٣، ٧، ٢١)، وكلمـة «مـن» المكـررة وحـرف «Y» الأجنبـي. هـذا دائمًـا هـو فنجـان المضطربـات. كان قـد تَوَقَّـف عـن القـراءة فـترة حينـما شـعر أن بعـض الفناجـين يتحـدث إليـه.

قال لإحداهن مرة اسمها الذي لا يناديها به سوى جدّتها، فاضطربت وتركته مذهولة، وكان حينما يرغب في صمت الجميع في الجلسات التي تصيبه بالغثيان، وهي معظم جلسات حياته السابقة، يقترح أن يقرأ للفتاة الموجودة بينهم الفنجان، كان يتحرر بذلك من سطوة الملل والكلام المُعاد.

ويبدأ في القراءة ويشتعل المكان ويبدأ الفنجان في الهمس، وينتابه شعور بأنه أفاق فيغرق في اللذة ويعلو التواصل بينه وبين الفنجان. يتأمل فنجانه الآن في المقهى الفارغ ويشرع في قرءاته لنفسه. إنها المرة الأولى التي يحاول فيها ذلك. كان مليئًا بالمساحات البيضاء وكتل البن الثقيلة، وكانت المجنونة تمسك بدفٍّ وترقص على جدران الفنجان حافية، وتضرب على دُفّها ضربات عنيفة تعلو تدريجيًّا وتغطّي على همس الفنجان، تتوقّف عن الضرب وتُخرِج من صدرها الرائع سيجارة لينتبه لفستانها الإسباني الأنيق. اقترب أكثر من الفنجان، ورآها تطلب منه أن يشعل لها سيجارتها، لم يتردّد

وهبـط في بيـاض الفنجـان، وسـارا معًـا عـلى طـراوة الـبن التـي شـعر بهـا، بخاصَّـة بعـد أن طلبـت منـه أن يُلقِـي بنعليـه خـارج الفنجـان. مـدّ يـده عـلى صدرهـا، أخـذ سـيجارة أخـرى وجلسـا بعضهـما إلى جـوار بعـض، يتبـادلان التدخـين ويتأمـلان الرسـومات الضخمـة أمامهـما عـلى جـدران الفنجـان. مـدّت يدهـا عـلى كتلـة الـبن أسـفلهما وغمسـت إصبعهـا ووضعتـه في فمـه قبـل أن يسـألها عـن تأخُّرهـا، فجـاء طعـم أصابعهـا مناسـبًا لنظرتـه إلى أعـلى الفنجـان، وإصبـعُ النـادل الضخـم الـذي اسـتراح عـلى الفنجـان يسـحبه بعيـدًا، ويختبـئ أكـثر ملتصقًـا بهـا في ظـلام الفنجـان، ويشـعر بالـدوار حينـما يبـدأ الفنجـان في التحـرك عـلى الصينيـة التـي تحملهـا يـد النـادل. كانـا ملتصقـين تمامًـا تحيطهـما رائحـة الـبُنّ، ولم يفكِّـر قَـطّ في الجالـس بمفـرده الآن في المقهـى في البـلاد الغريبـة بـلا فنجـان، بعـد أن فشـل تمامًـا في قراءتـه، لكنـه واصـل السـير علّـه يجـد تمثـالًا يذكّـره بشـخص يشـبهه، تقـف أسـفله المجنونـة تـؤكّل الحـمام.

***

في ميدان الحسين يتأبّط ذراع صديقه النموذجي، ويمران من الميدان إلى المقام، وعند استراحتهما في المقهى القريب من المسجد يلمحان الفندق الذي سكنه الأب قديمًا، وتحلو الحكايات عن الآباء فيحكي له عن الأب الذي سكن هذا الفندق شابًّا صغيرًا، والليلة التي كان نائمًا فيها في غرفته المطلّة على ساحة المسجد، ويحلم حلمًا عجيبًا. يحلم بمحكمة معقودة وهيئتها أعداد غفيرة في أزياء مختلفة من عباءات وعمائم وجلابيب وبذلات. والمحكمة ساحة لا تنتهي، والمتهَم هو الأب الشابّ، وموضوع المحاكمة هو تركه صلاة الفجر التي اعتاد أن يؤدّيها في مسجد الحسين المجاور.

أخذت الأحكام تنهال تدريجيًّا نحو التخفيف من الإعدام إلى الأشغال الشاقة، إلى أن ظهر صديقه في نهاية الحلم، وصديق الأب هو الشيخ سعد الذي طلب من المحكمة التخفيف أكثر حتى أصبح الحكم صفعتين، مجرَّد صفعتين قويتين ويقوم ليتوضأ أمامهم ويصلِّي بالفعل،

انهالـت الصفعـة قويَّـةً عـلى وجـه الأب الـذي هـبّ مـن نومـه مفزوعًـا تمامًـا مـع أذان الفجـر، وفي صبـاح اليـوم التـالي كان الأب في صـلاة الجمعـة منشـغلًا عـن الصـلاة وعـن خطبـة الخطيـب، فعينـه معلَّقـة ببـاب المسـجد في انتظـار الشـيخ سـعد ليقـصّ لـه رؤيـاه. أوشـكت الخطبـة عـلى الانتهـاء، وهـا هـو ذا الشـيخ سـعد الـوضي ضخـم الجثـة يقتحـم المسـجد غـير آبـه بنظـره الأب. يجلـس بعيـدًا عنـه وتنتهـي الصـلاة ويهـرول الأب خلـف الشـيخ سـعد، وحينـما يلحـق بـه يهـمّ بـأن يحـكي لـه مـا رأى، فـيردّ عليـه الشـيخ سـعد غاضبًـا: بـس ولا كلمـة.. لسـه هتاخـذ مِيـةْ قلـم تـاني!

***

أنهى حكايته واشتريا البخور معًا، ومرَّا مشيًا من ميدان الحسين إلى السيدة زينب، واستراحا للطعام وأكملا خطّ سيرهما إلى مصر القديمة، واستقرَّا على كرسيّ حجريّ بجوار الكورنيش كأنهما لا يريدان العودة إلى الشقة المظلمة الضيقة، وأخذا يحلمان بميدان متَّسع وحديقة وحبيبة لا تغيب.

***

في طريق العودة إلى الشقة يمرَّان بمقام قبر سليمان باشا الفرنساوي ويشير نحو القبة ضاحكًا: كأن أحد الشياطين يسكن تلك القبة!

فيردّ الصديق النموذجي: نعم، أنا على يقين من ذلك.

***

لقد بلغ ابن صاحب الطاحونة الصغيرة في ليون مرتبة الكولونيل بعد أن حارب مع جيش نابليون

بونابـرت وأبـلى بـلاءً حَسَـنًا، وانتقـل مـن البحريـة إلى القتـال الـبَرِّيّ، ولَـمَّا انكـسر نابليـون تَحـوَّل الكولونيـل العاطــل إلى مِهَــن لم يعتَدْهــا، وعمــل بالتجــارة والزراعـة، وظـلّ حلـم العـودة إلى الحيـاة العسـكرية يـراوده حتـى أتى إلى مـصر سـنة ١٨١٩ والتقـى محمـد عــليّ، الــذي أُعجِــبَ بــه وأراد أن ينظِّــم الجيــشَ المـصريَّ فـارس مـن فرسـان نابليـون العظيـم، وأدَّى الرجــل الــمَهَمَّة عــلى أكمــل وجــه، ونَظَّــم جيشًــا حديثًـا متطـوِّرًا.

وأنعـم عليـه محمـد عـلي بالباشـوية بعـد أن أظهـر براعتــه في حــرب الشــام والأناضــول، فصــار ســليمان باشـا الفرنسـاوي، وعُـيِّن رئيسًـا عامًّـا للجهاديـة.

وجذبــه الــشرق واعتنــق الإســلام، وســمَّى نفســه «سـليمان بـك»، وتـزوج بمريـم هانـم، كريمـة محمـد شريــف باشــا، وأنجــب منهــا أســماء المهــدي التــي تَزوَّجَـت عبـد الرحيـم باشـا صـبري وزيـر الزراعـة، وأنجبـت منـه الملكـة نـازلي زوجـة الملـك فـؤاد وأم الملــك فــاروق.

وتُوُفِّي سنة ١٨٦٠، وكان هنا في ذلك القبر مستَقَرُّه الأخير، بينما ظلّ تمثاله في ميدان يُسَمَّى باسمه في قلب القاهرة.

هكذا سرد الصديقي النموذجي تاريخ الرجل ولخَّصه في براعة أذهلت الصديق الذي يستيقظ مبكِّرًا ويجهِّز نفسه الآن للخروج للعمل ويضحك متعجِّبًا من هذين الصديقَيْن غريبَي الأطوار اللذين يُنهِيَان يومهما قبل أن يبدأ هو يومه. سيتركهما ويخرج، ويُلقِي نظرة مرتبكة على المقام قبل أن يواصل طريقه إلى العمل وقد سَرَتْ في جسده رعدة.

في مربض الطائرات..

كان الميدان مليئًا بالتماثيل التي تشبه أصدقاءه والمساحات الخضراء والحمام الذي يملأ كل مكان. كانت كل حمامة تستقرّ على الأرض تصبح جبسًا، فتبتسم التماثيل وتسأله عن سرّ عدم نزوله إلى وسط البلد في الفترة الأخيرة، وعن غيابه الذي طال عن شقة الفرنساوي، وعن أجندته الرمادية التي كان يهرب منهم إليها.

أمسك بحمامة من الجبس وقذف بها في وجه صديقه المبتسم، فطارت من يده وتابعها بنظره حتى حطّت فوق شرفة منزلهم في الصعيد. المنزل الصغير المطلّ على النيل حيث تقف شجرة الصمغ العتيقة وأخذت تنوح:

«كان يسكن هنا.. بجوار النيل.. يتابع الموج الراحل إلى الشمال».

*** بعض مِمَّا ترك قبل الرحيل**

حينما ترك الشقَّة وخرج، اكتشف الصديقان أنه ترك دفترًا كاملًا من الأوراق الصغيرة، قصاصات كتب فيها بأقلام شَتَّى ملحوظات لهما، ونسي أن يعلّقها على الثلاجة كما ظنّ. ربما منعه الإرهاق أو الحرج، وظلّ الصديقان يقرآن ويفرزان الأقصوصات معًا ليلة كاملة، وكان فيها:

- عد سريعًا لأحكي لك عن أشياء لا قيمة لها، عن الصديق الذي أتى يشكو انشغاله ويتسلَّى بفراغي.

- ماذا سنفعل بعد انتهاء مباريات كأس العالَم؟ وكيف نتعامل مع الأيام المقبلة بلا حدث يتابَع؟ لا تنسَ أن تخترع خبرًا تفوق سعادته كل حدّ، فأنا أشعر ببيضتين في حلقي...

- «حينما شويتك بالأمس كانت رائحة البخور

كثيفـة».

- «اصنـع معروفًـا بي الليلـة ولا توقظنـي حينـما تعـود، فأنـا لسـت نائمًـا، لكننـي لا أودّ أن أراك».

- حـضرت المجنونـة اليـوم أخـيرًا، ورأتهـا صاحبـة البيـت وحذّرَتهـا مـن دخـول شـقة العُـزَّاب، لكنهـا تَحَدَّتهـا وقالـت لهـا: «سـآتي ثانيـةً وثالثـةً»، وأنـا خلـف البـاب أضحـك.

- أكتب فيلمًا جديدًا بلا معني.

- أيـن الشريـط الـذي بـه أغنيـة «مـالي فُتنـت»؟ بحثـت عنـه ولم أجـده.

- هـل تعلـم أنـه أخـيرًا صديقـي النائـم مبكّـرًا يشـعر بالملـل ويأخـذ إجـازة مـن عملـه لأول مـرة في حياتـه لمـدة ٤ أيـام؟

- حينـما تـأتي ليـلًا حـاول أن تشـتري بسبوسـة وتشـتري روايـة، سـأهب لـك غزالـة، فقـد انتهيـت مـن «الإغـواء الأخـير».

- لا تغضب، فبالأمس لم أكُن أطيق أن أراك وتَصنَّعْت النوم.

- لا تغضب، فقد أتى المكوجي وأخبرني أن قميصك قد سُرق ضمن ما سُرق من ملابس في محلّه بالأمس.

- هل تصدق أنني أنسى كل يوم أن أضع لك الورقة في مكان ظاهر، وأنام لأعود وأقرأها في اليوم التالي بمفردي.

- لماذا نقيم بالفرنساوي رغم أننا نمقت هذا المكان؟

- تعال اليوم مبكِّرًا لأنني أريد أن أحدِّثك عن رحلتي الأخيرة وعمَّا حدث فيها، حاول أن تلحق بي لأني قد أخرج قبل أن تعود.

انتهت القصاصات واستمر الصديقان في صَمْت وفَقْد وسَهَر، وسكتت الحمامة تمامًا عن النوح، وعادت جبسًا يشير بمنقاره إلى شُبَّاك الشقَّة في

الـدور الأرضي في وجـه المقـام. وفتـح الصديـق الـذي ينـام مبكّـرا الشُّـبَّاك المطـلّ عـلى المقـام في حـزن، وسـهر ليلتهـا ينتظـره للصبـاح.

***

مربض الطائرات والميدان..

في الميدان هناك كانت وجوه التماثيل تنظر إليه باحتقار ممزوج بجملة قصيرة: يا قليل الأصل ألا تذكر لنا جميلًا واحدًا صنعناه لك؟

واعتراه بكاء مرير وصار وحيدًا في الميدان. هربت حتى التماثيل والمجنونة، وظلّ وحيدًا يبكي ويرتعش.

***

يدفعك الملل كثيرًا إلى فعل أشياء تبدو عجيبة لأولئك الذين لديهم جداول للمواعيد. لن يفهم أحد منهم قطعا كيف يركب مع صديقه النموذجي حتى القتل «ميني باص» لا يعرفان أي محطة فيه الأخيرة. فقط يركبان متجاورين من مصر القديمة إلى أي نهاية محتمَلة، ولتكُن حلوان أو المعادي أو مدينة نصر، لا يهمّ. فقط يتحدثان

وهـواء الشُّـبَّاك يندفـع إليهـما مسـتمعًا إلى حـوار يجعـل الواقفـة إلى جوارهـما تبتسـم رغـمًا عنهـا.

***

النموذجي حتى القتل: أريد أن أطير.

ويردّ هو: وما المانع؟ اركب طائرة.

- لا.. أريد أن أطير بالفعل.

- اركب مُنطادًا.

- لا.. أريد أن أطير أنا أنا.. أطير بروحي.

ويغمـض عينيـه ويصمـت والهـواء يـزداد اندفاعًـا، كأنـه يؤكِّـد لهـما حلـم الطـيران.

* لم يـدرِ أن الأيـام سـتدفع بصديقـه النموذجـي حتـى القتـل بعيـدًا ويطـير بالفعـل، يطـير إلى الجهـة الأخـرى مـن العالَـم، يطـير إلى كنـدا ويتـزوج ويعيـش هنـاك عـدة سـنوات، يلتقيـان بعدهـا سـاعات قليلـة ثـم يطـير مـرة أخـرى ويـأتي صوتـه عـبر الهاتـف

واهنًا ضعيفًا ضاحكًا: «أنا تعبان شوية بس تمام.. وحشِتْني أيام الفرنساوي»، فيرد عليه: «بتعمل إيه في كندا؟ والنبي انت ماتنفعش غير في كهوف البداري»، لكن الضحكة في الطرف الثاني من العالَم لم تعُدْ مجلجلة، أتت واهنة، وَهَنًا أقَضَّ مضجعه حتى الآن، رغم مرور سنوات على موت الصديق النموذجي حتى القتل بعيدًا في كندا.

***

لم يكُن أمامه سوى العودة. استسلم لفراغ الطائرة. استسلم للثلاجة المجنَّحة التي تحمله من الدنمارك إلى ميدان التحرير، واستسلم لأوامر المضيفة بشكل آليّ، متذكِّرًا لها دائمًا ما يروق الطيَّارَ وموقفًا لذاكرته الشخصية. خارج النافذة كان السحاب حروفًا مُعجَمة، ولم يستطِع تحديد الزمن بدِقَّة، فلا وجود للشمس ولا وجود لليل قاطع الظُّلْمة، فقط سحاب غير مضيء وسط رماد لا ينتهي، وهو يتذكر وصوت المضيفة يردِّد بحرفية عالية في النبرة:

الطيَّار يريد أن يعرف وزنك الحقيقي.

الطيَّار يريد أن يعرف طولك بالسنتيمترات.

الطيَّار يريد أن يعرف مقاس حذائك.

الطيار يريد أن يعرف.. لماذا ينتشر الشعر الأبيض في رأسك قبل الثلاثين؟

الطيَّار يريد أن يعرف حقيقة جرحك من المجنونة ومَن خان مَن، هي أم أوهامك؟

يريد أن يعرف...

ثم صمت صوتها فجأة. لا بد أنهما وافقا أخيرًا هناك في الكابينة على أن يرتاح قليلًا. وأغمض عينيه فلم يَرَ داخلهما أحد. وكان معتادًا قبل سفره أن يغمض عينيه فيجد داخلهما من يحدّق إلى وجهه مبتسمًا، فيفتحهما بسرعة ليجد مَن حوله منهمكين في ضجيج وكلمات غير مفهومة، فيغمض عينيه مرة أخرى فيجد داخلهما صاحب الوجه المبتسم مشغولًا عنه يحرّك رأسه يمينًا

ويسارًا، ويتمتم وهو مغمض العينين أيضًا كأنه يحثُّه على أن يردّد خلفه نفس الأقوال، فيحاول لكنه لا يستطيع سماع أذكار الجالس في عينيه المغمضتين، فيفتحهما مرة أخرى في حسرة ويجد من حوله ما زالوا على حالهم من صمت أو ضحك أو كلام، فيشعر بالسعادة لأنه يرى ما لا يرون.

لكنه هذه المرة يغمض عينيه فلا يبصر شيئًا داخلهما. يفتح عينيه، ما زالت الطائرة صامتة وفارغة، والممرّ الفاصل بين الكراسي لم تمرّ عليه أقدام أحد قَطّ. وفجأة يعلو صوت المضيفة صارخًا وصوت صفعات لا تنتهي واضح أنها تهبط على خدّها، فيأخذ صوتها في الصراخ بسرعة غريبة، ليتحوَّل صوت الصفعات إلى صوت ضربات قويَّة واصطدامات لجسد نحيل يرتطم بجوانب الكابينة والصراخ يعلو:

لا تعاملني هكذا!

لا تعاملني هكذا أرجوك!

لا تجعلني أفعل ما يدور في ذهني الآن!

ثم صرير معدني لباب يُفتَح ويُغلَق، ثم لا شيء بعد ذلك. صمت. يحاول أن يسمع أكثر... لا شيء هناك بالفعل، فيعود مرة أخرى إلى النظرة من النافذة وهو يهزّ رأسه من جنون الطيَّار والمضيفة، ويبتسم لظلّ وجهه على زجاج النافذة، لكنه يجد وجهًا آخَر ملتصقًا بزجاج النافذة من الخارج ينظر إليه مبتسمًا، وسَرْعَان ما يبتعد هذا الوجه عن النافذة ويطير بعيدًا وسط السحاب في ملابس طيَّار، و«كاب» فوق رأسه يطير، فيمدّ الطيَّار يده بخِفَّة ليُمسِك بالكاب هناك بعيدًا جدًّا وسط السحاب، ويختفي إلى الأبد.

لقد قذفَت به من الطائرة! المجنونة!

لم يشعر بالرعب في البداية، ولكن تذكُّره لابتسامة الطيَّار مرة أخرى هو الذي جعله يشعر بالرُّعب، ثم تذكُّره لكلمة المجنونة زاده رعبًا؛ كيف استطاعت

أن تخدعـه وتخـدع الطيَّـار طَـوَال الرحلـة؟! وهـل بالفعـل المضيفـة هـي نفسـها المجنونـة؟!

تعالـت ضحكاتهـا الهادئـة داخـل الكابينـة، وأخـذت الطائـرة في التمايـل بغـير اتِّـزان، وكان متأكـدًا أنهـا الآن تلعِّـب حاجبَيهـا بحركتهـا المميَّـزة وهـي تقـود طائرتهـا بـلا وعـي إلى أبعـد نقطـة.

***

في شقة الفرنساوي

كان الاثنان يفتقدانه بالفعل، يجلسان في صمت والشُّبَّاك مفتوح على المقام وباب الشقَّة أيضًا، وصالح عبد الحَيّ يصدَح عن البنفسج الذي يُبهِج رغم أنه زهر حزين، بينما هو يأتي مُرهَقا من ناحية المقام، ويتعجَّب للشُّبَّاك المفتوح وعلى وجهه آثار التَّعَب، فقد أنهكه البيات ثلاث ليالٍ متتاليةٍ ساهرًا على مَقهًى من مقاهي القاهرة التي تسهر إلى الصباح -لا يتذكَّر حتى لماذا تركهما وغادر الشقَّة غاضبًا- وكان كلَّما غَفَا في المقهى عبر الليالي الثلاث للحظات شاهد نفسه داخل طائرة وحيدًا، ويلمحها خارج النافذة مُعلَّقةً تضحك وتُلقِي إليه قبلة في الهواء.

لم يهلِّلَا للقائه كثيرًا، لكنه قرأ السعادة في وجهيهما، سعادة دفَعَت الصديق الذي ينام مبكِّرًا إلى وضع حَلَّة كبيرة مملوءة بالماء على البوتاجاز،

ودفَعَـت النموذجـيّ حتـى القتـل إلى تقطيـع كثـير مـن البصـل ودموعـه تنسـاب، لا نـدري مِـن البصـل أم مِـن الفَقْـد، بينـما استسـلم هـو في هـدوء تمامًـا وبـلا ألم للنـوم في الحَلَّـة، ومراقبـة نفسـه وهـو ينضـج رُوَيـدًا رُوَيـدًا، والرائحـة تتصاعـد وتعـبر مـن الشـقَّة الضيِّقـة إلى خـارج الشُّـبَّاك، وتحيـط بمقـام سـليمان باشـا الفرنسـاوي.

واسـمه الحقيقـي "أوكتـاف جوزيـف أنتلمـي سـيف"، وُلـد بمدينـة ليـون الفرنسـية مثلهـم تمامًـا بعيـدًا عـن العاصمـة، ووُلِـدُوا بعـده بمئتَـي عـامٍ في بلادهـم البعيـدة، واعْتَلَـت مقامـه حمامـة تنـوح:

«كان يسـكن هنـا.. قريبًـا مـن كل المـوتي... ينتظـر حبيبتـه»

***

بعد النهاية

حبيبة ساكن القبر

عن قبر سليمان باشا الفرنساوي المجاور لشخصيات رواية «المجنونة» وساكنه العجيب وجارته

-١-

كان عليه أن ينتظرهم، لا يدري ماذا يشدّه في هؤلاء البشر، في طفولته كان يختبئ منهم ويخشاهم ولا يشارك إخوَتَه العبث معهم ومشاكستهم، فقط كان يصعد مُختَبَأَ التل -قبل أن يبني هذا المقام- ويشاهدهم وهم يعرقلون المارَّة أو يرى أحد إخوته يتشكَّل لذلك السكير العائد ليلًا بمفرده يترنح في صورة كلب أسود يستطيل حتى يلفّ التلّ بكامل جسده الوهميّ، بينما السكير يفرك عينيه أكثر من مرة وهو يلعن تلك البوظة التي قَضَت على حواسِّه، كل ذلك وإخوته يضحكون بصوت ليس يسمعه سواهم وهو القابع فوق التلّ وأخيهم الأكبر في الجسد الكلبي، كل ذلك كان في طفولته المبكِّرة قبل الآن بأكثر من مئتَي عام وقبل أن يبني هذا المقام لسليمان باشا الفرنساوي ويتخذ من قُبَّته مسكنًا أعلى ذلك القبر الجديد الذي دُفن فيه الغريب وأسرته وحصانه.

حينـما صـار شـابًّا تَوَقَّـف عـن الاختبـاء والفرجـة وصـار يـترك إخوتـه يعبثـون بالمـارَّة بينـما يرتـدي هـو الهـواء مثـل أبيـه ويطـير حتـى ينظـر إلى العالَـم مـن أعـلى، متشـبثًا بالسـور الحديـدي لـبرج القاهـرة أو يهبـط ملتصقًـا بذيـل أسـد كوبـري قـصر النيـل مسـتمتعًا بالملمـس البـارد للبرونـز، كان في تلـك الفـترة مفتونًـا بأبيـه الهـارب عـلى الـدوام مـن أمـه، يـراه في وسـط البلـد مُختَبِئًـا في زجاجـة براندي في بـار صغـير يصـبّ منهـا أحدهـم، أو جالسًـا فـوق لسـان أحـد الغاضبـين يضغـط عليـه بحذائـه الحـادّ فيـزداد غضبًـا، لا ينكـر أبـدًا إعجابـه بأبيـه، رغـم غضـب أمـه منـه ونعتهـا إيـاه بأبشـع النعـوت. سـنوات طويلـة قاومت فيهـا ولعـه بالنسـاء الآدميـات والشِّـعْر، الشِّـعْر الـذي حذَّرَتـه منـه كثـيرًا حتـى لا يصـير مثـل أبيـه، وحينـما كانـت تمسـك بـه متلبسًـا فـوق رأس أحـد شـعراء وسـط البلـد وهـو يهمـس لـه بالشـعر قبـل أن يهبـط عـلى لسـانه، كان يقـرأ الشِّـعْر في المسـافة الفاصلـة بـين خيـال الشـاعر ونطقـه بـه، وفي تلـك اللحظـة تحديـدًا تشـدّه أمـه مـن ذيلـه بعنـف، وتسـأله إن

كان قد رأى أباه لاهيًا في فتحة صدر إحداهن أو محشورًا في بنطلونها، فيقسم لها إنه لم يرَه، فتستطيل الأم شاردةً في حزن قبل أن تتحول إلى ذَرّة مِرَاء في سيجارة أحد زبائن مقهى الشعراء وهو يردِّد قصيدة حزينة عن الفقد، وفي طريق العودة يهمس لها في تودُّد مبرِّرًا وجوده في ذلك المقهى: لا تغضبي، فأنا أحبهم حقًّا هؤلاء الشعراء؛ إنهم يشبهوننا كثيرًا وليسوا بالشر الخالص؟ وبهم كثير من خِفَّتنا.

لا تردّ وتتركه باحثة عن زوج هارب، ويعود هو قرب الفجر نحو مسكنه أعلى قبة قبر سليمان الفرنساوي، يكون إخوته قد تعبوا من الشجار والمشاكسة وتكون هي الآن نائمة في غرفتها المواجِهة للقبر، يدخل من الشُّبَّاك في حذر ويتأمَّل وجهها النائم في هُيام ويتشكَّل في هيئة قِطّ رماديٍّ سمين ويرقد بجوار خدها في وَجَل وتَرَقُّب، وحينما يتأكَّد أنها مستكينة تمامًا غارقة في حُلمِها يقفز إلى داخل الحُلم، يدخل الحُلم في هيئة شابّ

مراهـق في مثـل سِـنِّها، سـتة عـشر عامًـا، يمسـك يدهـا ويجـري بهـا في شـوارع وسـط البلـد مثلـما كان يـرى الشـباب هنـاك يفعلـون، وضحـك في وجههـا أيضًـا مثلـما يضحكـون، ويغنِّـي مـردِّدًا مـا سـمعه مـن أشـعار في المقاهـي هنـاك محـاولًا تقليـد نـبرة شـاعر العامِّيـة النحيـف وضحكـة عامـل المقهـى ومشـية الفنـان التشـكيلي ذات الإيقـاع الراقـص وحركـة يـد الشـاعر المزهـوّ بنفسـه حتـى ينجـح في جعلهـا تنظـر إليـه بفرحـة وتبتسـم وهـو يحـاول أن يجمـع لهـا ملامـح أولئـك البـشر الذيـن تابعهـم كثـيرًا، فيصنـع لها صـورة جذَّابـة شـائقة تجعلهـا تقـترب منـه أكـثر، ومـع اقترابهـا يرتبـك ويفقـد السـيطرة عـلى نفسـه ويخـاف أن يأخـذه الحنـين أكـثر فيفقـد القـدرة عـلى التشـكُّل، فـلا تَشَـكُّل في عاطفـة مشـبوبة، وقـد يـزداد ارتبـاكًا فيظهـر لهـا عـلى صورتـه الحقيقيـة وتـرى ذيلـه، فيقفـز بسرعـة إلى خـارج الحلـم قِطًّـا رماديًّـا سـمينًا يتأمـل وجههـا النائـم ونَفَسـها الـذي صـار الآن أكـثر تَهدُّجًـا وإثـارة، يقـترب بشـواربه مـن وجههـا فيتحـرك أنفهـا وهـي عـلى وشـك العطـس، فيبتسـم ثـم ينسـلّ

مـن الشُّـبَّاك عائـدًا إلى القـبر وقُبَّتِـه والظهـيرةُ تحـرق البيـوت، إن الموظفـين الآن على وشـك التأهُّـب للعودة إلى البيـوت، والبنـات الكُسـالى عـلى وشـك الاسـتيقاظ، رائحتهـن تمـلأ الشـارع وتمـلأ أنفـه، فيتمـدَّد فـوق قُبَّـة القـبر مـادًّا ذيلـه في كسـل ومُلقِيًـا بذراعَيـه عـلى أسـطح البيـوت المجـاورة وناظـرًا إلى الشـمس بتَلَـذُّذ متأمِّـلًا موظَّفِـي القـبر الأثـري، يجلسـون يوميًّـا في صحـن القـبر يقـرؤون الجرائـد ويوقِّعـون في دفـتر كبـير إثباتًـا لحضورهـم، ثـم ينصرفـون في عجلـة بعـد أن يغلقـوا بابًـا حديديًّـا عـلى قـبر لا يـزوره أحـد، أحـد الأطفـال يقـذف بالكـرة فتصـل إلى القُبَّـة وتلمـس طَـرَف ذيلـه فينثنـي ويعيدهـا بلطـف إليهـم، لـو كان إخوتـه الآن متيقِّظـين لاحتفظـوا بالكـرة حتـى يصعـد الطفـل بنفسـه فـوق السـور ويتسـلَّق بـكل جَهـدِه ليصـل إلى القُبَّـة ليأخـذ الكـرة، وحينـما يقـترب بيـده منهـا سـيتركون الكـرة تَسـقُط ليَسـقُط الطفـل وراءهـا عـلى سـاقه أو رقبتـه فيَضِجُّـوا بالضحـك. هـو لا يحـب ذلـك، بـل ربمـا يخـاف مـن الأطفـال، عليـه أن يواجـه نفسـه بذلـك، أن الأطفـال مخيفـون جـدًّا ولا يمكـن

التنبُّـؤ بـردود أفعالهـم، عليـه أن يغمـض عينيـه الآن ويتظاهـر بالنـوم، فهـا هـو ذا الأب في طَـرَف الحـارة المقابلـة في صـورة كلـب أسْـوَدَ سـكرانَ، وهنـاك كلبـة حزينـة تتبعـه، لقـد عـاد إذَن أبـوه وأُمُّـه ولا يريـد أن يشـهد مشـاجرتهما اليوميـة التـي قـد يصـل صوتهـما فيهـا إلى مغـارة جَدِّهـم الأكـبر هنـاك في جبـل المقطَّم.

-٢-

الجَـدّ الأكـبر كان مُخِيفًـا بالفعـل، رآه نحـو أربـع مـرات في حياتـه كلهـا، المـرة الأولى في زواج ابـن عمـه،كان فرحًـا مشـهودًا وكادت يومهـا صخـور المقطَّـم تطـير مـن الضَّجَّـة، وتَسَـلَّى بعـض شـباب العائلـة في الفـرح بقلـب عديـد مـن السـيارات التـي كانـت تمـرّ عـلى الطريـق لتصنـع بنـيران انفجارهـا أضـواءً جديـدة تُبهِجُهـم أكـثر وبصرخـات مـن بداخلها ضجيجًـا ممتعًـا، كان حينهـا صغـيرًا جـدًّا لكنـه رآه هنـاك والعـروس وعريسـها يقبِّـلان ذيلـه في خشـوع وأدب، وهـو جالـس عـلى حجـر ضَخْـم في عبـاءة حمـراء يطـير منهـا الـشرر، كان ذا وجـه طويـل لا يحمـل أيّ تعبـير، وشـعره أحمـر منسـدل عـلى كتفَيـه فـلا تسـتطيع التمييـز بينـه وبـين العبـاءة، وكان رغـم سـنِّه الكبـيرة يبـدو شـابًّا ولا يوجـد في ذيلـه ولا عقـدة واحـدة، وكلـما تَحـرَّك وجهـه في اتِّجـاه اهتـزَّت الأرض مـن أسـفل الجميـع، لمـس بذيلـه ذيـلَي العروسَـين

المتشابكَين فكانت علامةً على إتمام ذلك العرس بشكل رسميّ.

لا يذكر شيئًا بعد ذلك، ربما سحبَته أُمُّه من ذيله وطافت به بعيدًا ليبحث معها عن أبيه العابث، وربما أخرجه «غرغر»، خادم الجد، للَّهو مع الصغار خارج الكهف، وربما أيضًا ألصقت ليلتها «هوشا» ابنة عمِّه ذيلها بذيله كما اعتادت كلّما رأته ففَرّ هاربًا بعد أن التهب ذيله بشِدَّة، كانت دائمًا ما تنتهز الفرصة لذلك في أيّ مناسبة عائليَّة مزدحمة وتبدأ في التحرُّش به بعنف لا يدري معه إن كانت تحبه أو تكرهه، فقط تُلصِق ذيلها به فيهرب فتتحوَّل إلى دائرة من لهب تحيط بطَرَف ذيله وتأخذ في الضِّيق والاتِّساع فيشعر بسخونة أكبر ويبدأ ذيله في التمدُّد غَصْبًا، فيسحبه بقُوَّة ويفِرّ منها، ورغم مرور السنين وزواج هوشا بابن عمٍّ آخَر «قاصو»، البارد كما يسمِّيه الجميع، وظهور العُقَد بذيلها وظهور شعرتين حمراوين في ذقنها مبكِّرًا، فإنه إلى الآن كلما رآها وجد نفسه

يلـمّ ذيلـه بشـكل تلقـائي كأنـه قـد مسَّـته السـخونة.

أمَّـا المـرة الثانيـة التـي رأى فيهـا جَـدَّه، فلـم يعـرف في لحظتهـا أنـه هـو، ولكـن عـرف ذلـك بعـد رحيلـه مـن خـلال ابـن عمـه قاصـو البـارد، لم يكُـن قـد اعتـاد أن يـرى أقاربـه مـن قبـل وهـم مجتمعـون في أدب لـوداع رجـل آدمـيّ في ملامـح أولئـك الآدميـين الذيـن يسـكنون الغـرب مـن الكـرة الأرضيـة، أصفـر الشـعر أحمـر الوجـه وعيونـه زرقـاء، كان قـد رآهـم مـن قبـلُ أولئـك الغربيـين في رحلـة صنعهـا لـه عَمُّـه «شـيرق» بمناسـبة بلوغـه، وطـاف بـه مُمسِـكًا بذيلـه فـوق جبـال الألـب وفـوق سـاعة بيـج بـن وفـوق نهـر السـين وبحـيرات البندقيـة وتعـرّف إلى أقاربـه أيضًـا هنـاك، الذيـن يقيمـون مـع البـشر في تلـك البـلاد، ولاحـظ أن ذيولهـم خَشِـنة وأعيُنهـم بنفسـجية ورقابهـم مربَّعـه، وكانـت هـي المـرة الأولى لـه التـي يمـارس فيهـا الجنـس حـين تركـه عمـه عمـدًا مـع «ليـكا»، الجِنِّيَّـة الأمريكيـة التـي يكفـي مجـرَّد تذكُّـره اسـمَها وحـده لجَعلِـه يتحسَّـس ذيلـه ليلمـس تلـك

الخـدوش التـي أحدَثَهـا وبـر ذيلهـا، كانـت حاميـة كجَهَنَّـم، وكان بريئًـا كالفتـاة التـي تنـام الآن هنـاك في غرفتهـا المواجهـة للقـبر، لذلـك اسـتغرب يومهـا أن يصطـفّ أهلـه المتغطرسـون لـوداع بـشريّ غـربيّ طويـل يصعـد نشـيطًا سـلالم الطائـرة وخلفـه عـدد مـن رجـال السـكرتارية يحملـون حقائـب سـوداء، وعندمـا طـارت الطائـرة بعيـدا همـس لـه قاصـو البـارد: إنـه جَدُّنـا يسـافر في مَهَمَّـة خاصَّـة مـن مَهامِّـه التـي لا تنتهـي.

يومهـا أدرك أن بينهـم وبـين عالَـم أولئـك البـشر تداخـلًا آخَـر ومهـامَّ أخـرى خـلاف العبـث بهـم والتشـكُّل لإفزاعهـم أو الضحـك منهـم، ويومهـا أيضًـا رآهـا، محبوبتـه التـي تنـام الآن في غرفتهـا في مواجهـة بيته/قُبَّـة القـبر، رآهـا للمـرة الأولى وهـي تتشـكَّل في بطـن أمهـا، كان يتسـلَّل يوميًّـا ليَشـهَد بنفسـه نُمُوَّهـا عـلى مهـل وإعجـاب هامسًـا: «لقـد تـمّ اليـوم شـكل الـرأس، يـاااه! لقـد ظهـر الأنـف بوضـوح، الجفـن ظهـر الآن»، ويـزداد توتُّـره وفضولـه فيهتـف: «متـى

تنظـر إلَيّ هاتـان العينـان؟!».

وحينـما خرجـت مـن بطـن أُمِّهـا كان أول مـن رآهـا أيضًـا، كان يجلـس عـلى طَـرَف السريـر، أسـفل قدمَـي الأُمّ بالضبـط، وحينـما احتـار الأب في تسـميتها همـس في أذن الأم بالاسـم: «حبيبـة...».

في المـرة الثالثـة لم يَـرَ جَـدَّه، ولكـن الجَـدّ في تلـك المـرة هـو الـذي رآه، كان لحظتهـا كعادتـه يجلـس في أحـد المقاهـي فـوق أحـد أكـواب مـاء أحدهـم مدلِّيًـا سـاقيه عـلى سـطح مائهـا متأمِّـلًا الشـاعر النحيـف الجالـس وهـو يـردِّد الشـعر، لحظتهـا أمسـك بـه جَـدُّه وهـو يسـتمع في اسـتمتاع شـديد، وأمسـك بـه في اللحظـة المناسـبة قبـل أن تلمـس أقدامـه المـاء بعـد أن أفقـده سـماع الشـعر توازنـه، يومهـا كان هـو اليـوم الأول والأخـير الـذي يلتقـي فيـه الجـدَّ بمفردهـما، أخـذه مـن يـده وظَـلَّا يسـيران طويـلًا دون كلام إلى أن دخـلا إلى كهـف المقطَّـم، وحينـما سـأله إن كان قـد أكل، ادَّعـى الشـبع، كانـت المغـارة متسـعة وبـاردة جـدًّا، وشـعر بالخـوف وهـو يـرى

جَـدَّه يدلـف إلى رُكْـن قَـصِيّ فيهـا ويرفـع الغطـاء عـن بيانـو ضخـم أصابعـه سـوداء ويخلـع عباءتـه الحمـراء ويجلـس للعـزف، بـدا مِـن دُونَ العبـاءة نحيـلًا جـدًّا ورماديًّـا ومثـيرًا للشـفقة، بـدأ في العـزف في الركـن شـبه المظلـم بوجـه نِصفُـه مُضاء والنصـف الآخَـر غائـب في العتمـة، وكان النصـف المضـاء حزينًـا إلى أقـصى درجـات الحـزن، كانـت النغـمات تطـير في المـكان عـلى شـكل دوائـر ذهبيـة تتداخـل وتفـترق ثـم تنسـاب بـلا إيقـاع ثابـت حتـى تمـلأ الكهـف، بينـما يـزداد وجـه الجَـدّ احتقانًـا، وكُلّـما عـلا اللحـن بـدا الجَـدّ عجـوزًا أكـثر، حتـى ظـنّ أن عليـه أن يجـري الآن مـن أمـام هـذا العجـوز الغاضـب قبـل أن ينتهـي مـن لحنـه ويـراه، لكنـه تماسـك حتـى أنهـى الجَـدّ اللحـن فجـأة وبعصبيـة، ونظـر إليـه نظـرة جعلتـه عاجـزًا حتـى عـن الهـروب، فأمسـك بـه بهـدوء شـديد واقـترب منـه هامسًـا في حنـان عجيـب وحملـه إلى أعـلى ثـم أجلسـه عـلى البيانـو فلـم تَصـدُر ولا نغمـة واحـدة بفعـل جلوسـه ذلـك، ولم يسـمع في الكهـف إلا صـدى صـوت الجَـدّ:

«تحب الشعر؟ ها؟

سيظلّ أبوك صعلوكًا بلا هدف وتظَلّ أُمُّك البلهاء تبحث عنه إلى الأبد؟! ها؟!

تبحث عنه وتردِّد نفس القصيدة؟

لِمَ لا تُجِيب؟ هل سيظلّ إخوتك صغارًا إلى الأبد يشاكسون المارَّة كل صباح؟! ألهذا خُلِقُوا؟

وأنت، ماذا تفعل في حياتك؟ ها؟

تستمع إلى الشعراء على المقاهي؟»

تَجمَّد الدم في عروقه وجَفّ حلقه ولم يجد إجابة واحدة، واقترب الجَدّ أكثر بوجهه الطويل وملامحه الحادَّة وتَحوَّل إلى كلمات لا تنتهي تدور في المكان، لقد تَفَتَّت تمامًا، تَحوَّل فقط إلى كلمات حزينة تدور، اجتهد أن يقرأها فكانت:

«ما من مدينة لك

ما من سبيل

حياتك التي بدَّدتَها في هذا الركن الصغير، مبدَّدةً تجدها من جديد في كل مكان»*

اختفت الكلمات وصار المكان فارغًا ولا أثر للجَدّ، فقط بيانو يجلس عليه وشهقات باكية بعيدة وذكرى لا تفارقه أبدًا، خرج يومها بمفرده من الكهف ضعيفًا لا يُعِينُه الهواء على الحركة كأنّ ذيله يشُدُّه إلى حزن جده...

في المرة الرابعة والأخيرة رأى جَدَّه شابًّا قويًّا خلا ذَيلُه من التجاعيد، رآه في كامل أُبَّهته يرتدي عباءته الحمراء ويطير خلف فتاة فاتنة مردِّدًا كلمات الغزل، ونجح في سحبها إليه بوَهْجِه وأَلَقِ وسامته وصَوتِه الساحر، حتى ألْقَتْ بنفسها في ماء النهر مبتسمةً بينما الجَدّ على سطح الماء راقصًا يغنِّي:

«يَا مَنْ لَعِبَت بِهِ شَمُولٌ

---

* جزء من قصيدة المدينة لكفافيس.

مَا أَلْطَفَ هَذِهِ الشَّمَائِلْ

نَشْوَانَ يَهُزُّه دَلَالٌ

كَالْغُصْنِ مَعَ النَّسِيمِ مَائِلْ

لَا يُمْكِنُهُ الْكَلَامُ لَكِنْ

قَدْ حَمَّلَ طَرْفَهُ رَسَائِلْ

وَالْوَرْدُ عَلَى الْخُدُودِ غُصْنٌ

وَالنَّرْجَسُ فِي الْجُفُونِ ذَابِلْ»*

وكانت تلك هي المرة الأخيرة

الشمس تخترق الزجاج وتسقط الآن على وجه حبيبة وتقرصه أشعَّتها بعُنْف فيصفرّ الزَّغَب الخفيف على خَدِّها وتنفرج شفتاها عن سِنَّتَين

---

* موشح قديم.

متباعدتين وتشعر عيناها بوَهْج الشمس وثِقَل الحاجبين فتفتحهما بهدوء وتعطي الشمس والشُّبَّاك ظهرها فتقسو الشمس بحرارتها أكثر على زجاج الشُّبَّاك فيتحمل بصبر، وتتمطع حبيبة ويتباعد النهدان وتقترب الساقان وتملأ رائحتها الأنثوية الحلوة المكان وتعبر خارجة من غرفتها إلى الشارع، يشمُّها الصِّبْيَة فيتوقفون عن لعب الكرة وينظرون إلى أعلى باتجاه الشُّبَّاك وهم يجفِّفون العرق، ويشمُّها موظفو القبر فيتركون الدفاتر وينظرون إلى نفس الشُّبَّاك، وتغلق النساء الشبابيك ويُسرِعن إلى المطبخ وينشغلن بتجهيز الطعام حتى تغطي رائحته على عبير حبيبةَ الفوَّاح وهي الآن في شُبَّاكها شاردة مبتسمة تحاول أن تتذكر ذلك الحلم المكرَّر، حلم تراه تقريبًا كل ليلة والشُّبَّاك يصنع بروازًا جميلًا لوجهها الصَّبُوح المستند إلى يدها وكوب الشاي الساخن في اليد الأخرى ولا تدري أن هناك من يتابعها بوَلَهٍ شديدٍ

مـن فـوق قُبَّـة القـبر المواجـه بأعـيُن ذاهلـة يهمـس
رغـم بعـد المسـافة: نعـم، أنـا مـن زارك في الحلـم...

تمَّت بحمد الله

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية.

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235688678 -0235611772**
هاتف محمول: **01001872290/ 01005248794 / 01000405450**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpubishing

+KayanPubishing

KayanPublishing